أطياف

من عالم آخر

أطياف من عالم آخر
رواية
سحر عبد المجيد حجاب
الطبعة الأولي ٢٠١٣

هيئة التحرير

مراجعة لغوية :
سارة صلاح عبد الكريم

تصميم الغلاف :
أسامة علام

إخراج داخلي :
إبـــداع للـدعـاية والإعـلان

دار الحـلم للنشر والتوزيع
القاهرة ،٤ شارع الأشراف من
شارع
مؤسسة الزكاة - المرج

موبايل :
٠١١٤١٨٢٤٥٦٢
:E-Mail
dar_el7elm@hotmail.com

المدير العام :
د/اسلام فتحى

رقم الايداع : ٢٠١٣/٤٦٤٠
I.S.B.N:978-977-6412-21-7

أطياف

من عالم آخر

سحر حجاب

الفهرس

٦ لوحة لم تكتمل
١١ زمن آخر
١٧ سيسيل
٢٠ في المقهي الباريسي
٢٣ قلعة جوليان
٢٥ أسير في حلم
٢٨ اتفاق عمل
٣٢ سلاسل من حروف
٣٤ زيارة مفاجأة
٣٨ مكتبة الأسكندرية
٤٢ الطريق الي رشيد
٤٥ المبخرة النحاسية
٤٨ أين أنت
٥٣ قصة حب
٦٠ المهرجان العظيم
٦٤ ليلة مؤرقة
٧٠ السرداب
٧٧ صندوق الذكريات
٨٦ ليلة بلا قمر
٩٤ الحقيقة

الإهداء

الى والدى ..

الى والدتى .. نافذتى على الحياة..

الى نجمتين رحبت بهما سمائى . . هما الحياة

الى طارق الحرية من علمنى كيف أعيش الحياة

أهدى روايتى الأولى

-١-

لوحة لم تكتمل

وَقَفَ مستنِدًا بكتفهِ على إطار نافذتهِ المطلة على البحر ، متأملًا شروقَ شمس صبغتَها ألوان باستيلية ناعمة ، بينما يحتسي قهوتَه الساخنة وقد تصاعدت من فنجانِه الأبخرة بلونِها الفضيّ لتختلط بالضوء المتسلل ساقطًا على وجههِ فتلمع في الضوءِ عيناه المرتجفة وكأنها تبحثُ عن شيءٍ خفيّ لم يدر هو ماهيته.

(أينَ أنتِ)..؟

هَمَسَ بها ممتزجة بتنهيدةٍ خافتة أزاحت أبخرةَ فنجانِهِ لتتبدد وتتبدد معها جفلتُه القصيرة وقد أقفلَ جفونه لتستر بريقَ التمني المطلّ من عينيه. اعتدلَ وهو يفتحُ عيناه ، وضعَ فنجانَه على طاولة صغيرة بجوار النافذة ثم اتجه لمكتبِه القابع في ركن الغرفة وقد تبعثرت عليه أوراق من أصناف مختلفة ، زادها بعثرة بحثه عن فرشاة الرسم التي وَجَدَها تحت بضعة أوراق فأمسك بها بفرحةِ طفل قد أمسك لتوه بحلواه المفضلة واتجه على الفور لغرفة مليئة باللوحات الغير مكتملة متّكئة على الجدران في حالة انتظارٍ دائم .

ـ أنَس ؟؟ أينَ أنتَ ؟؟ أمازلت قابع بمرسمك؟

(نادى بهِ صوتٌ جاءَ من الشرفةِ الخارجية وأخذ يقتربُ من مرسم أنَس حتى ظَهَرَت من خلفِ أَنَس المنهمك في الرسم ملابس تميل للكلاسيكية ونظارة طبية تطلّ من وراءها عيون مبتسمة لصديق حميم من أيامِ الصبا.

ـ ها قد جئت كعادتك لتخرجني من حالة الإلهام ، وفي هذا الصباح

بالذات أشعرُ بشئٍ غريب .

قالها أنس دون أن يلتفت لصديقه وقد استرخت عضلاته وأسدل ذراعيه ليلقي بفرشاته وبالتة الرسم على طاولة مجاورة .

أقبلَ عليهِ صديقُه ووضعَ ذراعَه حول رقبته بضمة حنونة وبصوت خافت قال :

ـ إلهامك لم ينقطع يومًا منذ سنين ، منذ بدأت هذه اللوحة التي لم تكتمل يوماً ومازلت تجهل ما ستكون عليه ، وما تلبث تبدأ في أخرى جديدة عندما تيأس من هذه حتى تترك الجديدة عائدًا إليها مرة أخرى ، هيا أعلم جيداً أنك لم تنم مُنذ الأمس ، سأعدُ لنا فطورًا محترمًا يليقُ برسام فنان وأثريّ متفان.

سحبه من أمام لوحته وبعد خطوتين توقفَ أنس ونظر لصديقه نظرة حائرة مجنونة ثم انفجر قائلاً:

ـ سأجن يا تيمور ، سأجن .. أراها أمامي باستمرار ولا أتمكن من وصفها .. أشعرُ بأنفاسِها ولا ألمسها .. أشمُ عِطرًا وأعرفُ جيداً أنه عِطرها بالرغم أني لم أتنسم هذا العطر من قبل أبدًا .. إنها معي ولكنها ليست هنا ، لا تسألني كيف فأنا لا أعرف كيف ، برودة تُقشعرُ بدني في حرِ الصيف وحرارة تلهبُ فؤادي في أكثر ليالي الشتاءِ برداً .

ـ هون عليك يا صديقي ، تكاد تفقد عقلك .

قالها تيمور وهو يربت على ذراعيّ أنس ، ثم لكزه في كتفه قائلاً :

ـ إذا لم تكن قد فقدته بالفعل .

ثم جذبه خارجًا

ـ هيا هيا .

كان بيت أنس يعكس بساطة حياته وقد بناه أنس من طبيعة الأرض التي بُنى عليها ، من الحجارة ، ويتلخص في شرفة كبيرة أرضية هي المدخل

الرئيسي للبيت ، بها باب يدلف لغرفة مكتب مثال للفوضى رغم تكدسها بالكتب ورائحة الورق ، ويتصدرغرفة المكتب باب كبير يؤدي لآخر حجرة في البيت الصغير وهي المرسم الخاص بأنَس وليس به بخلاف اللوحات إلا فراش صغير في أحد الأركان .

وهما يستمتعان بنسائم الصباح الرطبة في الشرفة المطلة على البحر تناولا إفطارهما الذي أعده تيمور بينما كان أنس يأخذ حماماً ساخناً استجابة لرجاء صديقه ، وقد أيقظ عبير الصباح شهية أنس وكذلك فضوله لمعرفة أخبار صديقه فسأله :

ـ ما أخبار أبحاثك الأثرية يا عبقري الزمان ؟ لقد شُغلت كثيرًا هذه الأيام عني ولم أرك منذ ثلاثة أيام؟ .

ـ ألغاز .. ألغاز.. تركَ لنا أجدادُنا كِنز من الألغاز ، تعرف طبعًا حجر رشيد الذي فك طلاسمه شامبليون .

رجف أنس عند سماعه عن الحجر ولكنه تماسك ولم يظهر لصديقه شيئًا وحاول أن يُصغي جيداً لكلماتِ صديقه الذي استطرد :

ـ مازال عنده الكثير من الألغاز وها نحن نحاول فك عقدة لسانه ليتكلم ويفصح ، وطبعًا لم يترك اصدقاؤنا الفرنسيون حقهم في الحجر المطلسم فجاءت بعثة منهم لتكوّن أبحاثنا تحت إشرافهم وإلا تُمنع عنا المعونة المخصصة لأبحاث الأثريات الفرعونية .

ـ هم من حافظوا على ما تبقى من معابد وأهرامات تركها الأجداد بعدما فكك منها محمد علي ولاحقوه وسابقوه لبناء مصانع سكر أو بناء سور للقاهرة ، بإمكانك أن ترى أحجار منقوش عليها كتابة فرعونية تتناثر بجدران قصور وأسوار الأيوبيين والمماليك.

ـ نعم ، أعرف ، لكن إلى متى ندفع ثمن أخطاء الأجداد ؟

نحن نعمل كفريق ولكن قائد الفريق لابد أن يكون فرنسي وإذا وصلنا

لاكتشاف ما يُنسب تلقائيًا للجهة الممولة مهما بذلنا من جهد ومهما كان ما أنجزناه نحن كعلماء مصريين ، ولكننا لا نعمل لهدف سوى المعرفة والوصول للحقيقة وللأسف لن نصل إليها إلا بالتمويل الفرنسي (نظر لصديقه) :

ـ ولكني لا أعرف لِمَ تدافع عن الفرنسيين هكذا ؟

ـ أنا فقط لا أريد أن أبخس حقهم ووضحت لك وجهة نظري .

ـ كلامك صحيح ولكن لا تنسى أن من قام بتفكيك المعابد ليسوا أيضًا مصريين ، المصريون مهما اختلفت أعراقهم ومنبتهم الأصليّ ترعرعوا وسط أطلال معابد أصبحت جزءاً منهم وهم جزءٌ منها ، نَمَت قصص الحب بين أحضانها ،وأنَست وحيدين في أوقات يأسهم ، لم يحاول مِصريّ على الإطلاق أخذ حجر واحد ليضعه بجدار منزل أو يبني به سور.

وبدورهِ أعدَ أنس الشاي وجاءَ به للشرفة وبينما هو مقبل على صديقه الذي أخذ يُعد الطاولة التي سيوضع عليها الشاي قال تيمور :

ـ تحملت أنت عبء إعداد الشاي لأنك تريده في فناجين خزفية كما تفعل منذ سنين .

ـ أنا أحب أن أشرب الشاي في كوبٍ زجاجيّ .

صب أنس الشاي بالفناجين من الإبريق الخزفيّ وأعطى تيمور فنجانه، وبينما ارتشف من فنجانه الذي أخذه وهو يجلس قال:

ـ هي تحبه هكذا .

ـ لهذه الدرجة أصبحت تعرف ماذا تحب وماذا تكره ؟

من هي يا أنس ؟ ما اسمها ؟

ـ قلت لك أكثر من مرة لا أعرف، هي حبيبتي التي لم أرها ، هي رفيقة عمر لم أعشه ، أتعرف؟ أشعر أن حياتي هذه ليست منذ ولدت أنا ، بل أشعر أنني امتداد لحياة أخرى ، أعرف أشياءً لم أقرأ عنها ولم أعلمها

مسبقًا ، أشعر أن لي ماضٍ لم أعشه ، كما أشعر أني موجود في حياة أخرى موازية لحياتي ،(نظر لعيني صديقه المرتابة واستطرد) : وصدقني ليس وهمًا ، ولكن الأمر يزداد قوة وخصوصًا في الأشهر الأخيرة ، في البداية كنت أشك أحيانا أني أعاني خَطْب ما وأن هذا كله أوهام ولكن الآن ما كنت لأشك أنه وهم وأصبحت متيقن أنه حقيقة ، وأكثر حقيقة أعيشها في كل هذا أني أحب ،... أحب حتى النخاع , ورغم أنى أشعر بها معى (متجهاً لسور الشرفة ومتطلعاً للبحر وكأنه ينظر للبعد الثالث) إلا أنى أُيقن أن ما يفصل بينى وبينها هو هذا (يشير بسبابته اتجاه البحر).

ـ البحر.

-٢-

زمن أخر

البحر .. ماج بصنوفٍ من المراكب والسفن ، تناثرت قرب حافة رصيف ميناء الاسكندرية والذي استعدت لمغادرته سفينة شراعية حافلة بمن عليها من أصناف كثر من البشر ، أخذوا يتحركون بخفة وسرعة ويتصايحون وينقلون ويصعدون وينزلون ويتصادمون.

ووسط هذا الضجيج دويَ صمت حزين سكن قلب فتاة ، اختلطت أشعة الشمس الذهبية بخصلات شعرها المتطاير وطغى عليهما وهج خديها ، ولم يحد من هذا اللهيب سوى بريق منبعث من زرقة عينيها وقد غرقتا في بحيرتين من الدموع .

لم تسمع سوى نقرة قطرة من دموعها سقطت على إطار الحاجز الخشبيّ الذي أمسكت به بكلتا راحتيها كأنها تريد سحقه لتمر عائدة للبر مرة أخرى ، ولكنها بدلاً من ذلك رفعت يدها ومسحت باصابعها القطرة الثانية قبل أن تسقط ثم لوحت بها ، فمرّ نسيم البحرِ بأصابعها متجهاً للبر ملامساً وجه ذاك الفتى الأسمر بملابسه المحلية وعمامته البيضاء والذي وقف متجمد الملامح ثابت النظر نحو السفينة المغادرة فتنسم عطر حبيبته المغادرة المحمول على قطرة من دموعها ، فتحركت أنامله ورد تحيتها ملوحاً لها بابتسامة أمل في شيءٍ ما.

لم تتصل الفتاة بالعالم الخارجيّ إلاعندما احتضنت كف الطبيب لاكورتيني يدها الصغيرة المتشبثة بالدرابزين ، وقد اقترب منها في محاولة أب بائسة

لمواساة لم تزد الجرح سوى اتساعاً :

ـ عزيزتي سيلفيا , تعرفين جيدا أن هذا لصالحك , (ناظراً إتجاه البر) ولصالحه أيضاً .

ـ أعرف .

قالتها وهي تخفت نظرها لأسفل عائدة للصمت مرة أخرى وهي ترى آخر قطرة من دموعها تسقط ولكن هذه المرة في البحر.

البحر الذي آنس وحدة الفتى الأسمر بالرغم أنه نفس البحر الذي أخذ منه حب عمره ، لكنه مازال الرابط الوحيد بينهما الآن ، لذا اتخذ مجلسه بجوار القلعة برشيد حيث قضى معها أولى ساعات عشقه المذبوح وقد وجه نظره للبحر متأملاً بعداً ثالثاً أو ربما رابعاً ،بينما تختنق الشمس بأحبال الشفق الناريّ.

مرر أنامله على وجهه ثم شمها مغمض العينين ، إنه عبير حبيبته المغادرة مازال أثراً منه موجود رغم غياب صاحبته منذ أيام .

ـ عُمَر ! أمازلت تناجي البحر ؟ بحثتُ عنك في كل مكان وها أنت هنا في عالمٍ أخر.

كان هذا صوت منصور ، شاب يقترب عدد سنوات عمره مما لدى عُمَر تقريباً لكن مظاهر السذاجة تضج بملامحه مع قليل من الغباء جعله يفسد خلوة ابن عمه بكلماته اللامبالية ، فرد عليه عُمَر وهو ما يزال ينظر للبحر :

ـ ما الذى أتى بك الآن ؟

ـ إلى متى يا ابن عمي ؟

ـ إلى متى ماذا ؟ ماذا تقصد ؟

ـ أهلك يفتقدونك بعد أن أخذتك منا هذه الفرنسية ، سلبت عقلك

وروحك ، أنت لست أنت ، معنا ولست معنا، كل شيء انتهى ، يجب أن تعود عُمَر الذي نعرفه ؟

لم يجبيه عمر بكلمة وساد الصمت لبرهة قبل أن يستأنف منصور حديثه اللحوح قائلاً :

ـ طيب اشكي احكي ، سوف أستمع إليك هذه المرة، سأفهم.

نظر له عمر دون أن يدير رأسه المثبتة باتجاه البحر ثم أعاد مقلتيه للبحر مرة أخرى وكأنه يخاف أن يفوته شيء في مشهد البحر.

فأكمل منصور :

ـ أنا أعرف أنني خذلتك لكن يجب أن تقدر موقفي ، صاحبي أنا لم أفهم، فأنا لم أمر يوماً بما مرّ بك.

ـ ولن تفهم ما أمر به الآن .

ـ جرِب ، تحدث معي وسوف ترى كم أنا متفهم ومقدر.

ـ اتركني يا منصور ، فات الأوان ، فانا أريد أن أكون بمفردي ... والبحر .

ورفع أنامله مرة أخرى قرب أنفه وتنسم العبير الذي لم يخفت بل خفتت شمس الغروب تاركاً عُمَر وحيداً على الشاطىء المظلم في ليلة غاب عنها القمر.

ولكن ملأ عيناه وميض لمشهد رؤيته لسيلفيا أول مرة ، كانت مقبلة من اتجاه الشمس وكأن أشعة الشمس تنبعث منها هي ، فأعمت نظر عُمَر الذي كان يجلس بجانب الطريق ممسكاً بيده كتاب عكف على قراءتهِ،ولسبب ما رفع نظره تجاه الشمس فرآها.

حاول عُمَر أن يفتح عينيه ليراها جيداً لكنه لم يستطع فأغمضهما مرة أخرى وعندما أفتحهما وجدها أمامه مباشرة ناظرة إليه ، تحركت شفتاها الوردية لتسأله بلغتها الفرنسية :

ـ من فضلك ، كيف أصِل لقلعة جوليان ؟

سكت عُمَر لبرهة لكنه أجاب عندما لمح نظرة تساؤل وانتظار في عينيها الزرقاوتين :

ـ إنها على مسيرة نصف ساعة من هنا .

ـ أوه ، لن أستطع السير كل هذه المسافة وأنا أحمل هذه الأدوات وحتى لو لم أكن أحملها ، فحرارة شمس كهذه كفيلة بقتلي.

ـ أهذه أدواتكِ سيدتي؟

ـ نعم .

ـ أأنتِ رسامة ؟

ـ (أومأت برأسها بالإيجاب) نعم , هل تدلنى على وسيلة لأصل للقلعة من فضلك ؟

ـ توجد وسيلة واحدة فقط .

امتطيا حمارين وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ويتضاحكان بينما يخترقان الدروب عبر الحقول ، سألها عمر :

ـ هل جئتِ من فرنسا وحدكِ ؟ لا يجدر بمن مثلك أن تسير وحدها هكذا .

ـ أنا جئت مع أبي فهو طبيب وصديق الطبيب الخاص بكتيبة بيير فرانسوا بورشارد أتعرفه؟

ـ نعم إنه الضابط المهندس الفرنسي الذي يرمم القلعة التي عُثِر على حجر ـ أسود بها.

ـ صحيحاً ، كما أن أبي مهتم نوعاً ما باللغات القديمة .

ـ هل أتى لرؤية الحجر ؟

ـ نعم ولسبب آخر

ـ هل لي أن أعرفه ؟

صمتت قليلاً تفكر ثم قالت :

ـ إنه يعاني من شعور بالذنب لما يفعله نابليون في العالم ، وفي محاولة منه أن يخفف من حدة ألم البشرية ،أخذ يجوب البلاد التي غزاها نابليون محاولاً تقديم يد المساعدة لأهلها.

ـ والدكِ مجنون مودموازيل

ـ أعلم ، بعض الشيء ، ولكني رأيت الكثير منذ بدأنا هذه الرحلة الشاقة وأعتقد أننا على مايرام ، فهو يمارس مهنته ويؤدي رسالته في تخفيف الآلام وأنا أدون وأسجل كل مكان زرته بلوحاتي .

ـ قد أتشرف بمقابلته يوماً ما ، فمن مثل والدكِ لا يجب أن تفوتني مقابلته، ولكني أتعجب منكِ، ألا تخافي أن تؤذين وأنتِ تسيرين وحدكِ في بلادٍ غريبة عنكِ ؟

ـ الحقيقة إنني لم افعل ذلك في أى بلد زرته بصحبة أبي ، ولكن هنا لا أعرف لماذا شعرت بألفة للمكان ولم أشعر بأي خوف يمنعني من المضي وحدي ، ولا أعتقد أنك مؤذي (بنظرة إرتياب) أم أنك كذلك ؟

ـ لا لا ، ولِمَ أؤذيكِ؟ .نحن لا نؤذ النساء . ولكني أُشفق عليكِ من حرارة الشمس وطول الطريق.

ـ أنا مستمتعة جداً ، فهذه الوجوه السمراء والأطفال المرحون والنخيل والحقول حتى أشعة الشمس التي تجعل كل شيء براق ومتوهج ، كل هذا يجعلني أريد أن أسجله بلوحاتي بأسرع ما يمكن ، كلها تثير في الحماس والإلهام ، فأنا أشعر بطاقة تملأ كياني .

أخذ عمر يتأملها وهي تتكلم بهذا الحماس الذي ملأ عيناها ببريقٍ آخاذ ولما انتبهت سيلفيا له غيرت مجرى الحديث قائلة :-

ـ كيف تتقن الفرنسية هكذا ؟ عندما سألتك لم اتوقع أنك تفهم لغتي .

ـ أعمل بالتجارة و لي عمل كثير مع الفرنسيين مما حتم علي أن أُلم بلغتكم، ولم أشعر بالامتنان لذلك سوى الآن.

توقفا بجوار مضخة مياه بدائية قابعة تحت شجرة توت عجوز بحقل قمح قد حال لونه للذهبيّ ، ممتد بالأفق نخيل بلغ العلو به كأنه سفير بين السماء والأرض .

توقفت سيلفيا أمام الحقل بعد أن ارتوت بماء جوف الأرض وهدّأت وهج خديها بمائه البارد ، ثم التفتت لعُمَر متسائلة

ـ أدائما الطبيعة هنا بهذه الروعة ؟

ـ بل لكل وقت جمال وروعة تختلف وتتنوع.

ـ أريد أن أرى كل شيء .

ـ إذا أردت من الممكن أن أرافقك طوال إقامتك هنا فأرشدك لأى مكان ، فأنا متفرغ هذه الأيام ، كما أن في رفقتكِ سرور كبير لي.

ابتسمت سيلفيا دون رد وعادت لتنظر نحو الحقل وقد امتزجت ذهبيته بزرقة عينيها تمازج غريب وجميل .

-٣-

سيسل

علا وجهها ابتسامة لطيفة بينما عينيها مغمضتان على حُلم جعلها تسير وسط حقول قمح ذهبية ممتدة بلانهاية وقد أحاطها نور أبيض دافئ ، ثم مرّ طائرٌ بجانب أذنها صائحاً بصوت مزعج ، ففتحت عينيها بطريقة آلية وما زالت صورة الحُلم بمقلتيها بينما سمعت صوت جرس ساعتها والذي يشبه صوت الطائر إلى حدٍ كبير.

التفتت لساعتها وأمسكتها بكلتا راحتيها ومازال النوم يثقل جفونها ثم رفعتها أمام نظرها ولما انتبهت لموضع عقرب الساعة بعد أن زالت غشاوة النعاس ملأ الرعب عينيها فقفزت من فراشها المصمم على الطراز الحديث حيث كان خالي من الجوانب والقوائم أيضاً في حجرة تكاد تكون خالية من أي أثاث ماعدا الكتب المتناثرة على عدة أرفف وعلى الأرض الخشبية .

)ليس مرة أخرى ، ليس مرة أخرى (قالتها لنفسها وهي تتقافز فوق فراشها ، ثم أنهت مجموعة القفزات بقفزة على الأرض ، وبحركة سريعة دست قدميها بخُف منزليّ ثم اختطفت فوطة لتضعها حول رقبتها واتجهت للحمام بسرعة طائر الفلامينجو المتجه للنهر.

إشراقة تملأ وجهها وهي مرتدية قميصها القطنيّ الأبيض وقد حطت عليه معطف صوف ناعم ، وبسروالها الجينز اتجهت بخطى سريعة لشارع دو كاردينال ليموان بباريس والذي يقودها لجامعة فرنسا، قد أثقلت كاهلها بحقيبة مكتظة بأوراق البحث والكتب .

وما أن دخلت قاعة الدرس حتى توقف بروفسير بيير لوكلانت عن شرح محاضرته في تاريخ الفن بالقرن الثامن عشر، تتبعها بنظره وهو يخفي ابتسامة شفقة على حالها ، مرتبكة تتخبط بين الطلبة الدارسين وهي في طريقها لمكانها بالمدرج ، وما أن استقرت حتى رفعت نظرها ولمعت عينيها الزرقاء بابتسامة لمحاضرها الذي استرسل في الشرح ، والذي استقبلها بعد ذلك بمكتبه بالجامعة وقد دخلت أشعة الشمس الباردة عبر زجاج النوافذ العالية التي احتضنتها أخشاب شجر الأرو القاتمة التي تغلف جدران الحجرة كما تقبع في شكل أثاث لوثرى عتيق ترامى بكل ركن بالمكان .
أشعل البروفسيور غليونه وهو يشير لتلميذته بالجلوس وقد استجابت على الفور بينما استقر هو على مقعده الوثير وما أن نفث أول حفنة من دخانه حتى نظر لسيسل بتحدي قائلاً :

ـ أمازلتِ تصرين على ما في رأسك ؟

اقتربت منه سيسل وقد تحركت بحيث أصبحت تجلس على آخر بضعة سنتيمرات من مقعدها وهي تحتضن مجموعة من المخطوطات والأوراق وهي تقول :

ـ أنا قمت بأبحاث عديدة وجمعت كمّ هائل من المعلومات ولا ينقصني سوى السفر ، أرجوك إنها فرصة حقيقية لي ، فأنا زرت بيتها هنا في فرنسا وعاينت كل الأماكن التي عُرِفت بتواجدها فيها وكذلك الأماكن التي رسمتها بلوحاتها ما عدا المجموعة التي رسمتها سنة ١٨٠٠ ، يجب أن أكون موجودة بالمكان الفعلي الموجود بلوحاتها ، سيكون شيئاً مختلف ، (نظرت لبعد ثالث نقلها لعالمها الآخر) قد أصِل لشيءٍ ما ، لا أعلم ما هو لكن عندي حدس أن هناك شئ ينتظرني ويجب أن أذهب إليه.

ـ لو أني لم أرَ العجب العجاب من دارسي الفنون ومن لهم مثل شغفك لقلت أنكِ جننتي ، ولكني أصدقك.

اعتدل في جلسته وهو يعبّأ رئتيه بدخان غليونه ثم استرسل :

ـ لكني أحذركِ (انتبهت سيسل ونظرت له بتساؤل) قد يجرفكِ حماسكِ لخطر غير واضحة ملامحه في الوقت الحاضر (اقترب منها مترجياً) لكن أستحلفكِ بالله أن تلزمي الحذر وأن تتراجعي إذا أحسستِ باقتراب خطر ما.

ـ لا أفهم شيء ، مما تريد أن تحذرني؟ وأين هذا الخطر المحدق بي؟

ـ سيلفيا ..لاكورتيني لم تعد من مصر كما كانت قبل أن تترك فرنسا ، عادت إنسانة أخرى بلا روح ، كما لو كانت تركت روحها بمصر ، وأنتِ شديدة التأثر بها ، بل إني أشعر أحياناً أن روحها تسكنكِ .

ـ لا تثر مخاوف لا وجود لها أرجوك فقد تكون الحرب سر تغيُر سيلفيا ، والآن لا يوجد حروب ، وما أنا سوى باحثة في تاريخ فنها ليس إلا .

ـ خذي حديثي هذا على علته الآن ولا تنسيه وستفهمين ما أقصد يوماً ما ، والآن (همَ واقفاً متجهاً لمكتبه ليملأ غليونه مرة أخرى بالتبغ) عليكِ الاستعداد للسفر إلى مِصر.

-٤-

فى المقهى الباريسىّ

دخلت سيرينا الصديقة المقربة لسيسل ملوحة لصديقتها وهي تقف على عتبة مقهى باريسي معبأ بالأجواء الباريسية الأصيلة بما فيها من صخب وألفة ، وقد وجدت سيرينا صديقتها سيسل جالسة في ركن قصى بالمقهى مستسلمة باستمتاع باحتساء قهوتها الساخنة بفنجان من الطراز القديم .

ـ اوه ، بالله عليكِ سيسل أمازلتِ تحتسي قهوتكِ بهذا الفنجان العتيق ؟ ألم تسمعي عن الأكواب المصنوعة من المواد الخفيفة أو حتى من الزجاج ؟

سردت سيرينا جملتها الطويلة هذه بسرعة وتعجل وهي تتخذ مجلسها بجوار صديقتها متعجبة من عادتها الغريبة هذه ثم أشارت للساقي ليأتها بمشروبها المعتاد ، وأجابتها سيسل :

ـ منذ فترة أصبحت أكره أن أشرب أى مشروب إلا في الفنجان ، أستمتع بهذا كثيراً حتى صرت أعتقد أنه أصبح إدماناً .

ثم نظرت لصديقتها سيرينا بسعادة تتقافز من عينيها وبتأهب لإلقاء خبر سار فانتبهت لها سيرينا بكل حواسها لتسمع من الحديث ما لم يقال بعد .

ـ سأسافر لمصر.

بحثت سيسل في وجه صديقتها عن رد فعل يشاركها سعادتها الغامرة ففوجئت بصديقتها تنفجر باكية وهي تحاول أن تخبئ دموعها بيديها.

ـ ماذا ؟ ماذا ؟

بحيرة سألت سيسل سيرينا التي أجابتها بنفس إسلوبها المتلاحق ولكن أكثر

توتراً

ـ أنا حامل ولم يتصل بي مايكل منذ عرف بالخبر وها أنتِ ذا تخبريني أنكِ ـ ستتركيني في وقت كهذا ، ماذا سافعل؟

ـ أوه عزيزتي ، ما هذا الموقف الغريب ؟ هل تأكدتِ من الحمل ؟

ـ نعم (وهى منخرطة فى البكاء)

ـ ألم تعلمى عن مايكل اى شئ ؟

(اماءت سيرينا بالنفى)، اهدئى عزيزتى ارجوكِ.

حضر الساقي ووضع مشروب سيرينا على طاولتهما فصمتت سيسل حتى رحل فاستطردت قائلة :

ـ لعله مشغول أو يعاني من خطب ما .

قالت وهي تحاول أن تكفكف دموعها :

ـ لا ، أقول لكِ يا صديقتي أنه ليس هناك من خطب غير خشيته أن يتورط في الزواج.

ـ لا تتعجلي في الحكم عليه ، فأنتما معاً منذ ثلاث سنوات وهو يبادلك الحب ولن يتخلى عنكِ أبداً.

ـ كل ما في الأمر أنني لم اتوقع أن أكون أم عزباء في وقتٍ ما ، ويبدو أنه حان الوقت لأستعد لهذا .

ابتسمت لها سيرينا بينما تكافح بكاءها محاولة ألا تفسد سعادة صديقتها التي ربتت على يديها مبادلة إياها الابتسام.

وبعد أن خرجتا من المقهى قطعتا الطريق بخطى سريعة وهما في طريق عودتهما لمسكنهما ، وما أن استقرت خطاهما على رصيف المشاة حتى التفتت سيرينا لصديقتها بعد أن لاحظت أنها تسبح في عالم آخر وبمحاولة لجذبها لتستقر على الأرض فبادرتها بالسؤال :

ـ أمازلتِ تحلمين بهذه الأحلام العجيبة ؟

ـ أومأت سيسل بابتسامة متوارية .

ثم استطردت سيرينا قائلة :

ـ أحياناً أشعر أنكِ جئت من مكان آخر , مكان بعيد (ضاحكة) تأتى لزيارتنا ثم تعودين مرة أخرى من حيث أتيتي.

تجيبها سيسل وقد لمعت عينيها وكأنها للتو اكتشفت شيء جديد :

ـ بالفعل سيرينا ، هذا بالضبط ما أشعر به ، أشعر أن أحلامي تأخذني لمكان أخر .. لموطني .. الذي أرحل عنه عندما أستيقظ صباحاً ، عائدة له مرة أخرى في المساء ، قد يكون هذا سبب تشبثى بالسفر لِمصر ، قد أجد فيها ضالتي (بابتسامة غامضة) قد أقابل هنالك شخص ما .

ـ المهم ألا يتركك بصحبة جنين تجهلي كيف ستقومين بتربيته وحدك .

ـ سيعود سيرينا ، سيكون كل شيء بخير ، صدقيني.

ـ لا تشغلي بالك بأموري فأنا كفيلة بإصلاح ما أفسدت ، أما أنتِ ألم تفكري لِمَ حذركِ البروفيسور من السفر ؟

ألم يكن من المنتظَر منه أن يشجعكِ وليس العكس ؟

أبحاثكِ هناك قد تفيده كثيراً فيما يقوم به من دراسات .

ـ لا أعرف ، فحديثه يخيفني أحياناً ،لكن هذا لا يجعلنى أتراجع (وكأنها إنتقلت لعالم آخر) أشعر أن هناك .. هناك .. فى بلاد بها من الاسرار التى تنتظر من على استعداد لإفناء العمر في سبيل كشفها، أشعر أن روحي معلقة هناك ، أنني غير مكتملة وأن بقاياي هناك تنتظر .

صمتت قليلاً مغمضة عينيها لوهلة ثم تنبهت عائدة للواقع

وقالت بهدوء :

ـ سنرى.

-٥-

قلعة جوليان

أوشكت الشمس أن تودّع يوماً بدأ بلقاء عُمَر وسيلفيا ، فرمت بأشعتها البرتقالية على أطلال القلعة الساكنة بجوار البحر وقد صبغت رداء سيلفيا الأبيض الذي عكس ضياء خافِت من ألوان نارية على وجها المتوهج فزاده توهجاً براقاً صافياً ، بينما كانت سيلفيا تجلس على صخرة استقرت على مقربة من القلعة تقبع بجوارها أدواتها ولوحة أمامها مرتكزة على حامل وقد خطّت بها خطوط غير مكتملة للقلعة ، وكانت مازالت تضيف لها الألوان والظلال ، وعينا عُمَر تتابع فرشاة سيلفيا الراقصة فوق قماش اللوحة، وبسلاسة أشعة الغروب انتقلت أنظاره من اللوحة إلى يد سيلفيا ثم فمها القابض على فرشاة أخرى وقد علقت بها خصلة من شعرها الذهبيّ بعد أن انسلّ من عقدة أحكمت بها شعرها ، فقطبت سيلفيا جبينها وقد شغلها انهماكها بالرسم عن إدراك سبب هذا الاقتطاب ، فمد عُمَر أنامله وحل خصلة الشعر ورفعها لتعود مع جمع رفيقاتها ، فانتبهت له سيلفيا ونظرت له بابتسامة شُكر .

كانا طوال نهارهما جاثمان بجوار القلعة وكأنها حارسهما الأمين ، شهدت لأول مرة منذ أنشأها قايتباي التقاء جديد وغريب ، تناقض متآلف وازداد تآلفاً بمرور ساعات اليوم دون ملل ، فقد روى كل منهما ما بجعبته من أقاصيص الطفولة وكأنهما أردا أن يُرجعا من الزمان عِقدا فيتشاركا الطفولة وأحداث الصِبا .

وبمرور الوقت اكتشف عُمَر أنه غرق في بحيرتين اغترفتا من زرقة بحر فصل موطنهما منذ قديم الأزل وكان الرابط بينهما في النهاية .

غرق عُمَر ،لكنه كان غرقاً صامتاً ، جمُدت ملامح وجهه فلم تستطع سيلفيا أن تستدل منها أين هو الآن فكفت عن الرسم و تساءلت بصوت رقيق عذب

ـ أين أنت الآن ؟

ـ أسبح ..أقصد لقد مر الوقت سريعاً يجب أن تعودي قبل أن يحل الظلام

ـ كيف أترك هذا المكان الخلاب ؟ كما أني لم أكمل لوحتي بعد .

ـ اتركيه اليوم وآتيه غداً ، أستطيع أن أُرافقكِ إلى هنا حتى تنتهي من لوحتكِ ، كما يوجد المزيد من الأماكن الجديرة بزيارتها ، فاصحبك اليها (نظر لأسفل) إذا أردتِ بالطبع .

رفعت نظرها إليه قائلة :

ـ طبعاً أريد ، أقصد أريد أن أستقي من جمال هذا البلد .

(صمتا لبُرهة ثم استطردت سيلفيا) :

ـ ولكن الحمارين رجعا لصاحبهما ، أتمانع في السير؟

ـ وهل أمامنا غير ذلك ، كما إني هكذا سأقضي وقتاً أطول معكِ .

حمل عُمَر عن سيلفيا أدواتها وسارا معاً تاركين خلفهما قلعة وحيدة أخفت وراءها آخر خيوط النهار الذي سلمهما لمشارف مدينة رشيد قبل أن يختفي نهائياً .

وبينما تحتضنهما الحارات على ضوء المصابيح المعلقة على أبواب البيوت وقناديل الأطفال رأت سيلفيا المدينة بظلال جديدة فهمست مأخوذة بما ترى :

ـ كأني أسير في حُلم .

-٦-

أسيرُ فى حُلم

(كأني أسيرُ في حُلم)..

سمعها أنَس همساً في أُذنه فسقطت فرشاة الرسم من بين أصابعه المرتجفة، تراجع من أمام لوحته التي كان منهمكاً في العمل بها ونظر لها بعينين تملأهما الحيرة والتساؤل ، اقترب منها بأُذنِه يحاول أن يسمع شيئاً ، ثم تراجع والخوف يلفه فأخذ يتلفت حوله متراجعاً للخلف حتى اعترضه مقعد صغير تهاوى عليه بأنفاس متلاحقة ، ولما هدأ قليلاً أدرك أنه لم يسمع هذا الصوت ، بل أنه صدر من داخله .

إنها هي ولكن هذه المرة تحدثت ، إنه صوتها ، هو يعرف جيداً ولكنه لا يعرف كيف عَرِف ذلك ، إنها رفيقته منذ سنين فكيف لا يعرف صوتها .

هذا ما كان يدور بخلده ، محاولاً إدراك ما حدث ، بالرغم أن بداخله يقين بحقيقة ما يشعر به ، إلا أنه في بعض الأحيان يشك أن الجنون قد مسه ، فالمجنون لا يُدرك أنه فقد عقله بل ويعتقد أن من حوله كلهم مجانين ، لكن أنس لا يعتقد أن من حوله مجانين إذاً فهو ليس مجنون .

ابتسم ولمعت عيناه بفرحةِ من وَصَلَ لأول الطريق ، لسببين ثانيهما أنه أدرك أنه ليس مجنوناً ، أما أولهما أنه سعيدٌ لأنه سمع صوتها الذي أخذ يستحضره بعد ذلك مرات ومرات ليأنس به .

انقطعت سلسة أفكاره بطَرقٍ على رأسه من جرس هاتفه ، وقد ضايقه ذلك كثيراً ، فهذه الرحلة لأعماق فكره تربطه بشكل ما بمؤنسة وحدته لكنه استسلم في النهاية وذهب ليختطف سماعة الهاتف التي خرج

صوت والده منها يؤنبه :

ألم يأن الآوان لتحضر إلى منزلك؟

ـ أنا في منزلي بالفعل .

ـ أنت بمرسمك وليس منزلك ، أتسمي هذا منزل؟ أستظل على هذا الحال المزريّ ؟ إلى متى ؟ أفِق مما أنت فيه ، فهذا ليس بعمل ، عملك هنا ..ينتظرك ، يكفي ما أضعته من وقت ، لم أنت صامت هكذا؟

ـ ليس عندي ما أقوله ، ليس هناك كلمات تستطيع أن تخلِق أي تواصل بيننا.

ـ ما هذا الذي تقول ؟! لم؟! أتريد أن تقول أني لا أفهم ؟!

ـ أبي ، أرجوك أنا لم أقل أي شيء من هذا ولكن ... كيف قلبك الآن ؟ أتأخذ دواءك بانتظام؟

ـ هكذا ؟ أنا مازلت في إنتظارك يا بني ، في انتظار عودتك دائماً

وما أن انتهت المهاتفة حتى أمسك أنَس برقبته وكأنها يحاول إزاحة قيد ملفوف حولها ، ثم زج بنفسه للشرفة محاولاً إفراغ همه فملأ صدره بهواء البحر الذي يشُم فيه عطرها دائماً.

قطع عليه نشوته بعطر البحر جرس الهاتف مرة أخرى، ومن شدة حنقه كاد أن يتجاهله أو يصمته للأبد ، ولكنه خشي أن يكون على الطرف الآخر صديقه قاطع الإلهام ، فبلع غصته واتجه للهاتف مرة أخرى فسمع صوت تيمور وقد جاءه من الأسكندرية ليسرد له آخر الأنباء حول البعثة القادمة من فرنسا مما أشعره بغضب ضاق به صدره ، فقرر أن يلجأ لأكبر مدافِع عن الفرنسيين فيشكوهم له فيعينه ذلك على تقبل الامر ، قابل أنَس انفعالات وغضب تيمور بهدوء شديد قد يكون مبعثه الأكبر مجهود كبير بذله في كبت انفعالاته من المهاتفة السابقة ، و رد عليه بصوت ممنطق:

ـ فكر بشكل منطقيّ أكثر يا تيمور ، وحاول أن تنظر للأمر بإيجابية

، فأنت بحاجة لمعرفة الاتجاهات الأخرى في البحث ، و نظريات جديدة ، كما لا تنس أنهم يملكون معدات وأجهزة بتقنيات عالية لا توجد في بلدنا .

ـ وهل لأن عندهم تقنيات عالية يُبخِس هذا حقنا في الكشف العلميّ ؟ نحن لا ينقصنا مهارة أو كفاءة ويتم رغم ذلك الاستعانة بالبعثات الأجنبية ليكون لهم دائماً السبق في أى اكتشاف أثريّ ببلادنا ، ونحن نساعدهم لتُحفر أسمائهم في جدار التاريخ ، أما نحن .... نحن لاشيء ... لا شيء.

استمع أنس لتيمور محاولاً امتصاص غضبه وتهدئة روعته ثم قال :

ـ تيمور ، اعتبر الموضوع تبادل ثقافات فهذه الآثار مِلك للعالم أجمع و ليست قاصرة على دولة معينة وهي كباقي العلوم أبحاثها ودراساتها قد تضم جنسيات مختلفة ،ويصبح المهم فقط كيفية الوصول للحقيقة، فلتحاول الوصول للحقيقة ياصديقي وليس المهم لمن ينسب الفضل بل الأهم أن تكتشف جديد ما أخبأته السنون برفات معابد وقبور.

أخذه التيه وغرق في الأفكار حتى أنه لم يفطن لصوت تيمور الصادر من سماعة الهاتف التي كادت تسقط من يده.

ولكنه بعد لحظات تدارك نفسه وسأل صديقه :

ـ متى ستأتى لرشيد ؟

بدا عليه الاستياء قليلاً ولكنه استطرد :

ـ حسناً ، فلتبذل ما في وسعك وسأكون هنا بانتظارك لتأتي وتخبرني بإنجازاتك .

-٧-

اتفاق عمل

وضع تيمور سماعة هاتفه حيث مستقرها وقد هدأت نفسه قليلاً بعد محادثته مع صديقه ، وقف وأخذ يلملم أوراقه المبعثرة على مكتبه الذي أتخذ موقعه بحجرة في مبنى إدارة جامعة الاسكندرية .

ولكنه توقف عندما سمع طرقاً على الباب ورفع رأسه ليجد تلك الباحثة الفرنسية التي جاءت مع البعثة صباحاً وقد رسمت ابتسامة مجاملة على شفتيها وهي تسأله :

ـ هل تسمح لي بدقائق قبل انصرافك؟

ـ بالطبع ، تفضلي.

دخلت سيسل واستقرت على مقعد جلديّ مقابل للمكتب ، بينما جلس تيمور على المقعد المقابل لها وهو يتصنع الترحيب ، أما سيسل فدخلت في الموضوع مباشرة

ـ أريد أن أناقش معك بعض الامور .

ـ الآن؟

ـ لا ، ليس بالضرورة الآن ، من الممكن أن نحدد موعداً .

ـ آخذ فكرة عن الموضوع ثم نحدد الموعد المناسب .

ـ أنا جئت مع البعثة لكن لي غرض آخر لا علاقة له بالآثار وهو سيلفيا لاكورتيني.

ـ من؟

ـ هذه فنانة تشكيلية من القرن الثامن عشر وقد كانت أجمل

لوحاتها هنا بمصر وأنا بصدد زيارة الأماكن التي رسمتها بلوحاتها.

ـ أها ، دراستكِ ليست عن الأعمال الفنية نفسها بل الأماكن التي حوتها هذه الأعمال ؟

ـ نعم.

ـ لِمَ؟

قد استدِل من المكان على شيءٍ ما ، أعلم أن هذا ليس ضمن جدول أعمال البعثة التي تقع تحت إشرافك ، لكني أريد منك المساعدة بالوسيلة التي تراها ، قد تبوح لي الأماكن ببعضٍ من أسرارها .

ـ أليس هذا بعيد بعض الشيء عن مهمة البعثة الرئيسية؟

ـ أعرف ، لكني أهتم بهذا الأمر منذ زمن ، وأريد أن أستغل فرصة وجودى بِمصر لأنجز بحثي في هذا الشأن ، فبحثي هذا لم ينل أى اهتمام من المختصين ببلدي حيث أن كل ما يشغل بالهم هو إيجاد قطع أثرية ليقدروها بملايين ، وتظل مصدر للنزاع على امتلاكها للأبد .

ولِمَ اهتمامك أنتِ بهذا الموضوع الغريب ؟

ـ لأن سيلفيا تهمني وأدرك أن عندها ما ينتظرني ، كيف وأين ومتى لا أعرف على الإطلاق .

ـ أتعرفين انكِ غريبة الاطوار يا مودموازيل ...؟

سيسل ، اسمي سيسل .

ـ نعم ، أسف نسيت للحظة الاسم ، ولكن ليس في إمكانك أن تقومين بعمل لم تكلفي به.

ـ أعلم ، لكني لست فرداً حقيقياً في البعثة بل أنا جئت بصحبتهم فقط لأستطيع أن أنجز ما أخبرتك به ،وهذا خطاب توصية من أستاذي بالجامعة بفرنسا ، لذا أرجو منك اصطحابي في أوقات أخرى بخلاف أوقات العمل، كما إني أود مساعدتك في الوصول لهذه الأماكن فأغلبها مجهول

الهوية ولم يُعرف في أي مدينة بِمِصر هي ، قد تستطيع التعرف عليها إذا رأيت صوراً من بعض أعمالها التي معي .

ـ سأفكر بالأمر وأحاول مساعدتكِ قدر المستطاع ، وغداً بإذن الله سأخبرك بالموعد والمكان فأنا مغادر الآن إلى بلدتي وهي على سفر بعيد ومضطر للعودة هذه الليلة ايضاً لاصطحاب البعثة غداً في أولى جولاتها كما تعلمين، لمعاينة موقع الدراسة .

وبينما يزيحان درجات الدرج من تحت أقدامهما وهما مغادران المبنى، أخذ الفضول يأكل بلُب سيسل ، فهي نفسها لا تعرف لِمَ هي فضولية نحو هذا الشخص بهذا الشكل ، كما أنها لا تعرف لِمَ هو بالذات الذي سألته المساعدة فيما تريد القيام به ولكنها تريد أن تحاوره بأي حال ،فقد تستطيع أن تمسك بواحدة من الهوائم التي تدور في مخيلتها فتتملك منها، وتكشف حقيقتها ، فتدرك لِمَ تُحيطَ بها ولأي شيء تحاول جذبها .

ـ علَ الامور على خير هناك (حاولت ان تكون اكثر لطفاً)

ـ نظر لها تيمور متسائلاً ، هناك ؟!

ـ نعم ، هناك في بلدتك.

تعجب تيمور من سؤال سيسل عن شيء لا يعنيها وهذا ليس من طباع أهل الغرب لكن رغم تعجبه أجابها:

ـ نعم كل شيء على مايرام ، لكن هناك مهاتفة من صديقي جعلتني أضحي بأمسية هادئة بعد يوم عمل شاق ، و رغم أنه لم يبح لي بشيء لكني أعلم أنه في حاجةٍ إليّ الآن .

ـ واضح أن صداقتكما قوية لدرجة أنها أخذت طابع روحانيّ ، فيشعر كل منكما بالأخر دون الحاجة للحديث.

ضاحكاً :

ـ ليس إلى هذا الحد لكنه له عالمه ، وهو عالمٌ خاص جداً ، يعيش

به وحيداً وكأنه صنع لنفسه جزيرة بقلب المحيط لا يمر بها زائر ، وبحُكم الصداقة القديمة أصبحت أنا الزائر الوحيد .

ـ ألا يزوره أحد؟

ـ بالعكس يزوره أشخاص كثيرون ومتعددون في النوعية والبيئة ، رغم أن عشته خارج المدينة ، رست وكأنها سفينة مهجورة بجوار البحر ، ولكني أقصد زوار عالمه الخاص ، لن أستطيع أن أشرح لكِ ، لكن قد تدركين ما أقصده يوماً ما.

ـ اعتقد انى اكاد ادرك (محاولة تغيير مسار الحديث وقد اقتربا من باب الخروج) لم تخبرنى باسم مدينتك.

ـ رشيد.

-٨-

سلاسل من حروف

لم تستطع أن تمسك بأي من هوائمها بل زادت الهوائم حجماً وحركة ، حتى كادت أن تذهِب بلُب سيسل التي لم تنم ليلتها ، بل عكفت على حاسوبها وأخذت تتجول بدهاليز الشبكة العنكبوتية ، بادئة بالبحث عن مدينة رشيد ، وهي المدينة التي علِمَت سيسل أن سيلفيا قضت بها معظم أوقاتها أثناء إقامتها بِمصر.

قرأت تاريخها الذي اقتصر على الفترة التي احتل فيها الفرنسيون المدينة ، وكأن المدينة لم تكن إلا بدخول الفرنسيين ولم تصبح ذات أهمية في شيء إلا باكتشاف الحجر الأسود بها ، والذي لم تصل لمعلومة واضحة عن مكان اكتشافه بالضبط رغم أهميته وصيّته الذائع ، فهل وجدوه عند حفر خندق حول القلعة ؟ أم وجدوه تحت أطلال القلعة ؟ أم وُجِد مُلقىَ على شاطىء رشيد كما قرأتْ في بعض المواقع الالكترونية ؟ لكنها فطنت لشيء لم تفكر به من قبل ، فالحجر الأسود أُكتشِف ، أياً كانت كيفية اكتشافه عند قلعة جوليان وهذه قلعة بناها العرب المسلمون ، وهذا الحجر فرعونيّ أي له تاريخ طويل يمتد آلاف السنين قبل قدوم العرب .

فمن الممكن أن يكون المسلمون استخدموا الحجر في البناء وهذا يعني أنْ قد يكون هناك أحجاراً أخرى ، ولكن الحجر عبارة عن رسالة ، وهذا يعني وجود احتمال أنها أُرسِلت لأهالي المنطقة في عصرها وأخفاها طفل الفيضان لتستقر مدفونة قرون ، وقد تكون هذه الرسالة محمولة على ظهر

سفينة لمكان آخر بعيد ولسبب ما رست الرسالة وحيدة على الشاطىء .
ولكن أشد ما جذب انتباهها أنها عندما بحثت عن معلومات عن قلعة رشيد أو ما عُرِفَت بقلعة جوليان في القرن الثامن والتاسع عشر وجدت صورة وحيدة لها على الشبكة ، وكانت هي نفس القلعة بإحدى لوحات سيلفيا ، و لأن الصورة لم تكن واضحة بما يكفي اخذت تقترب تارة وتبعد تارة عن شاشة الحاسب محاولة استكتشاف المزيد عن القلعة من خلال الصورة مبهمة الملامح ،مطموسة التفاصيل.
أثقل التعب جفون سيسل وهي غارقة بأفكارها أمام شاشة الحاسب فاستسلمت للنوم لوهلة لتفتح عيونها وهي تكاد تختنق ، أين الهواء لا يوجد غير ماء يحيط بها من كل اتجاه ؟! وما تبقى من كرات هواء صغيرة فلتت من أنفها هاربة لتصعد للنجاة ، وهي تنظر لها باستجداء أن تأخذها معها ثم رأت أمامها الحجر الأسود وقد بزغ من العدم والحروف بلغاتها الثلاث ،وقد تخلت عن الحجر وأخذت تسبح في سلاسل التفت حول سيسل التي أخذت تقاوم انجذابها للأسفل فكيلت الضربات بقدميها وذراعيها حتى هدها التعب فاستسلمت وبينما كانت تغوص للقاع ويغوص معها الحجر رأت وجهاً شبحيّ لشخص ما ينظر إليها من السطح ، وقد مد يده لها ممسكاً بمعصمها وبحركة خاطفة انتزعها للسطح بقوة فشهقت لتملأ صدرها بالحياة ، وبينما تفتح عينيها وجدت نفسها تقفز من مقعدها الساكن بحضن مكتب أطل من عليه الحاسوب وقد بدا كأنه يسخر منها.
سحبت جسدها المثقل من أمام هذا الساخر وهي تتلمس رداء نومها خوفاً أن تكون مبتلة ، ولما أدركت ما تفعل ابتسمت وجرجرت أقدامها المثقلة لتكمل رحلتها ولكن على فراشها هذه المرة علّه يكون سفينتها في بحر الاحلام.

-٩-

زيارة مفاجأة

فوجئ أنس وهو جالس بشرفة منزله كعادته ، يقضي أمسيته متأملاً الفراغ، سابحاً في الأمد البعيد للبحر بدخول تيمور عليه ، وبعد أن أتخذ تيمور مجلسه بجوار صديقه سأله أنس :

- ما أتى بك الآن ؟ أليس هناك بعثة تهتم بها ؟ أم أتيتَ هرباً منها ؟
- هرباً (مبتسماً)
- ليس من عادتك الهرب يا صديقي وأنت الباحث عن الحقائق ،
- تريد الصراحة أم ابنة عمها ؟
- أتصلُح ابنة العم الأخرى؟
- لا
- إذاً فأنا جئت بسببك أنت.
- نظر له بدهشة :
- أنا ؟
- شعرت من صوتكَ أن هناك أمراً ما ، فلتسرع بإخباري فأنت تعرف كيف الفضول يفتك بي.
- سمعتُ صوتها اليوم .
- من؟

نظر أنس لصديقه باستنكار كمن يسأل ألا تعرف من؟ فتدارك تيمور الأمر وقال بسخرية :

- أها، كيفَ ؟ عرفت ..اتصلت بك هاتفياً .. لا لا .. تمثلت أمامك

شحماً ولحماً ولساناً.

ـ لا أعرف ، لا أحتملك ولا أحتمل سخريتك ، ما أتى بك من الأساس فانا لم أدعوك للزيارة.

ـ يبدو أنني أثقلت في المزاح فلا تغضب مني ، فأنا لست في حالة طبيعية كما تعرف ، وخاصة بعد لقائي اليوم بهذه الفرنسية غريبة الأطوار . شعر أنس بلفحة باردة من نسيم البحر وقد مرت بوجنته ثم بأذنه وكأنها تهمس له بشيء ما حتى أنه كاد يلتفت وراءه ليلحق بها بعد أن تركته، لكنه أدرك وجود صديقه الساخر بصحبته ، فعدل وسأله:

ـ أنت لا تستمع لنصائحي ابداً ، فلِمَ تطلبها ؟

ـ أحاول والله يشهد أني أحاول ، والذي يثبت لك ، أني على وشك أن أكون المساعد الأول لغريبة الأطوار.

ـ اخبرني عنها .

ـ من ؟

ـ غريبة الأطوار.

ـ تعرف أني أتذكرك كلما رأيتها ولا أعرف لماذا ، أعتقد لأنك غريب الاطوار ايضاً .

ـ اخبرني أو ارجع للاسكندرية الآن.

بينما أخذ تيمور في سرد يومه كاملاً ،ليس ما يتعلق بسيسل فقط ، كان أنس يسرح بأفكاره ولا ينتبه إلا إذا جاء ذكر سيسل، فتتسارع ضربات قلبه و يشعر بتقلص في أمعائه ، فتذكر رواية ماركيز التي عانى أبطالها من أعراض تشبه أعراض مرض الكوليرا ،ثم اكتشفوا أنهم يعانون من الحب . الحب؟ حب من ؟ لم أرها حتى ولم أعرف عنها إلا القليل حتى أن صديقي لم ينه كلامه بعد ، قد أكون أصبت بالبرد فعلاً .

هذا ما دار بخلد أنس وتخبط بجنبات عقله ، بينما كان تيمور منطلق في

الحديث ، ولكنه صمت عندما فلتت أخر عبارة من زمام تفكير أنس دون أن يدري وتسللت عبر شفتيه (قد أكون أصِبت بالبرد فعلاً» ، قلقَ تيمور على صديقه وسأله:

ـ لِمَ ؟ بماذا تشعر ؟

ـ أنا ؟ لا شيء .

ـ كيف عرفت إذاً أنك أصبت بالبرد؟

ـ ومن قال أني أصبت بالبرد؟

ـ يا ربي ، الاثنان في يوم واحد ، هذا كثير .

ـ قال أنس محاولاً تغيير مجرى الحديث : أبي هاتفني اليوم ، كالعادة يريد أن يستعيد ما أعتقد أنه امتلكه يوماً .

ـ يريدك أن ترجع للبيت ؟

ـ نعم، ألا ييأس هذا الرجل أبداً ؟ إنه يثير عجبي رغم كل شيء ، يستخدم كل الوسائل وأدوات الترغيب والترهيب إن لزم الأمر ليصل إلى هدفه ، متجاهلاً أن هدفه في أغلب الأحيان لا يكون بالسمو الذي يحتم عليه بذل كل هذا الجهد.

ـ ماذا يريد منك ؟

ـ أن أضع نفسي مرة أخرى بقبضته ، فعرائسه التي يحركها تتناقص واحداً تلو الآخر ، وعودة الدمية الرئيسية في العرض ستكون بداية لعودة الباقين .

ـ ولكنك ظللت معه سنين دون كلل ، كيف استطعت الصمود وأنت بك كل هذا الألم منه ؟

ـ أمي .. نعم أمي ، منعتني دموع أمي من الرحيل ، ووجودي بجانبها منحها القدرة على الاستمرار، حتى أراد الله أن تترك رفقتنا الأليمة ، واخترت لأول مرة الحياة التي أريد دون قيود .

- ولكنك مازلت تتألم .
- بدون الألم لن تشعر بطعم السعادة .
- نعم انت محق كما أن هناك كثيرٌ من الألم ينتظرني غداً .
- أطرق أنس وبعد فترة صمت قصيرة جداً قال:
- أريد أن أراها .
- من ؟؟
- غريبة الأطوار.
- كـ .. كـيف ؟ .. لِمَ ؟ أقصد هذا طلب غريب.
- ما قولك ؟؟.
- دعني أفكر دقيقة .

أطرق بعض دقيقة ثم رفع رأسه قائلاً :

- فلتحزم حقائبك فوراً ولنعُد معاً للاسكندرية فغداً يومك الحافل يا صديقي.

-١٠-

مكتبة الاسكندرية

شعرَ أنس أن ثمة حدث بانتظاره وهاهو قدم إليه بعد ليلة طويلة لم يعرف فيها النوم إليه سبيلاً ، كان هذا شعوره بينما كانا يدلفا هو وصديقه إلى ساحة مكتبة الاسكندرية حيث اتفق تيمور و سيسل على المقابلة صباحاً هناك للاطلاع اولاً على بعض الوثائق والمعلومات.

طلب تيمور من صديقه أن ينتظره بخارج المكتبة الرئيسية أمام المرصد حتى يدخل هو أولاً لمقابلة سيسل ويمهد لها أن أنس هو من سيقوم عنه بالمهمة ، وبينما ينتظر أنس شعَرَ أن أشعة الشمس التي لم تكن قد أخذت مكانها بعد في كبد السماء قد حُجبَت عنه فاتجه بنظره اتجاه الشمس فشاهد طيف تتخلله أشعة الشمس وشعر دون تفكير أن هذا الطيف هو تجسيد لتلك الروح التي تداعبه منذ سنوات حتى ساوره الشك أن مسه الجنون ولكن هاهي قد أتته منبعثة من الشمس ، متوهجة ومتوجهة نحوه ، فشعر بقشعريرة تسري بأوصاله ، وألمٌ به ألم جعله يغمض عينيه ، ولما فتحهما مرة اخرى وجد وجهها أمامه مباشرة وهي تنظر له بدهشة . حار في أمره عندما رأها أمامه رؤى العين بل أدرك ملامحها بجميع تفاصيلها ، ولما أدرك شفاهها تكلمت قائلة له بدهشة :

- إني أعرفك ، نعم أعرفك ، بل أعرفك جيداً ولكن من أنت ؟ ماذا أقول ؟ يا لي من بلهاء .
- لا ، لستِ هكذا ، أنا أيضاً أعرفك .
- حقاً إذاً اخبرني أين التقينا من قبل؟

ـ لا أعرف .

ـ نعم؟

ـ قد نكون التقينا دون أن ندري أننا التقينا.

ـ قالت بدهشة : ماذا؟

ـ في زمن آخر أو في عالم آخر.

ـ لم أفهم.

ـ قد تكون أرواحنا التقت دون عِلم منا .

ـ ظننتك تتحدث بجدية للحظة ، أأسف بشدة على تطفلي هكذا ، فأكيد أنك تتصورني مجنونة أو أعاني خطباً ما.

ـ انا جاد جداً يا سيدتي ... ! كما إني لا أتصور أنكِ مجنونة أو بكِ خطب ما،

هل لى ان أسألك عن اسمك؟ أنا أنس (ماداً يده بالمصافحة)

ـ سيسل .

أصاب سيسل الذعر عندما احتضنت يد أنس يدها فأحست بخفقات قلبه المتسارعة وهي تدق بكفه لتسري بجسدها وتدق بصدرها فرفعت بصرها لتلتقي عيناها بعينيه محاولة أن تكتشف ما يحدث ، فوجدت عينيه ازدادتا حيرة وكأنهما يسألاها (أين انتِ؟).

صوت قطع هذا التواصل الغريب الغير مفهوم محطماً هالة السكون التي أحاطت بهما رغم ازدحام المكان بالوافدين وكان هذا صوت تيمور الذي وقف بذهول بينهما :

ـ هل يعرف كل منكما الآخر؟ أعتقد أنكما وفرتما علي مجهود التعارف .

فردت سيسل وهى تخفى توترها:

ـ لا ، لم نتعارف سوى الآن ، لكن واضح أنك تعرفه .

ـ طبعاً ، إنه منقذي .

وأخذ أنس بطرف الحديث هذه المرة ، كما لم تترك عيناه عينا سيسل:

ـ الآن أعتقد أن الأدوار تبدلت وأصبحت أنت منقذي .

لم يفهم تيمور ما يقصده أنس لكنه اعتاد أن لأنس جمل كثيرة ليست مفهومة لديه ولكنه في الغالب لا يقف عندها ، فقال موجهاً حديثه لسيسل :

ـ بحثت عنكِ بالداخل .

ـ لقد حضرت مبكراً جداً لأنني قضيت ليلة مؤرقة جداً ، و ولم أطق الانتظار بالداخل ، أريد أن أخبرك أني أود تعديل بسيط في الخطة .

ـ ماهو ؟ (متمنياً ان تلغى الرحلة كلها)

ـ أود أن تكون رحلتي لرشيد .

ـ رشيد ؟ لِمَ رشيد؟ ما الذي حدث في ليلة واحدة؟

ـ لا شيء لكنه مجرد حدس.

ـ قد تحدث أمور كثيرة جداً في ليلة واحدة صدقني.

قال أنس الجملة الأخيرة بابتسامة متوارية وكأنه يسترجع ذكرى ما، لكن تيمور بقى على حيرته .

ـ انتظر قليلاً يا أنس (متوجها بالسؤال لسيسل) فانا أود ان أعرف لم هذا التحول لمدينة نائية ؟

ـ حجر رشيد

ـ حجر رشيد بلندن وقد استقر بمتحف لندن منذ سنين عديدة ، منذ دفعتموه ثمن فى مقايضة مع الإنجليز ، ألا تعرفين ذلك؟

ـ أعرف ولكني لا أريد الحجر نفسه ، لكني أريد أن أرى الموقع الذي وُجِد به الحجر ، أريد قلعة جوليان.

ـ تقصدين قلعة قايتباي اسمها قايتباي وليس جوليان .

ـ أياً كان المسمى ، ما قولك؟

ـ لا أعرف فأنا عملي ما بين القاهرة والاسكندرية كما أن لدى خطط اخرى وعمل كثير (وقد استعاد هدوءه نسبياً) دعينى افكر قليلاً.

دون تفكير قال أنس وبنفس هدوءه المعهود:

ـ هل تمانعين لو كنت أنا من يتشرف برفقتك في رحلتكِ لرشيد ؟

فرشيد مدينتي وأعتقد أني سأكون مفيداً لكِ .

فوجئ تيمور باقتراح صديقه الذي ألقاه كحجر سقط على قمة رأسه فأصابه بالدوار .

ـ انتظر قليلاً ، ماذا تقول ؟

ـ أحل المشكلة ، هل هناك ما يمنع ؟

ـ أتريد ذلك حقاً ؟

ـ بكل سرور وبعد موافقة الآنسة طبعاً.

ـ موافقة بكل تأكيد إذا ضمنك دكتور تيمور .

ـ أنا أضمنه هو ، لكن ... همس في أذن أنس : أنت منعزل عن البشر منذ سنين والآن تسعى لصحبتها ، لماذا؟

ـ (هامساً بنفس اسلوب تيمور) كما قلت لك , احل المشكلة ؟

(بنبرة صوته العادية) هل تشكك فى قدراتى كمرشد سياحى ؟

ـ فليكن إذاً ولتأخذ سيارتي فلن أحتاج لها اليوم .

-١١-

الطريق إلى رشيد

رغم تنازل أنس عن بعض عزلته إلا أن قفص غير مرئي أحاط به ، وهذا ما أحست به سيسل وهي جالسة بجواره في السيارة ، حتى أنها شعرت أنها انسانة متطفلة ثقيلة على مصاحبها مما أصابها بغصة بحلقها فاتجهت بنظرها لجانب الطريق تتبع الحقول وتهتم بأصغر التفاصيل التي تمر تحت نظرها.

أما أنس غرق بأفكار شتى، بينما كان يقود سيارة تيمور التي كانت تطوي الطريق أمام عينيه إلى مدينة رشيد ، وأكثر ما أثار قلقه حيرة وتشتت أصاباه منذ الصباح منذ رأى سيسل ،فقد تصور لأول وهلة أنها تجسيد لحبيبته ثم أدرك أنها أخرى ، ولكنه شعر بألفة وانجذاب نحوها مما أثار بداخله مخاوف أن يزيح هذا الانجذاب لإنسانة على أرض الواقع ،طيف لازمه سنوات وتمازج معه بروحه ووجدانه ، ، فهو ألف هذه الصحبة التي لازمته سنين ولا يريد فراقها فهو لم يشعر بالسعادة الحقيقية إلا عندما بدأ كل هذا ، رغم أنه عاش وحيداً إلا أنه لم يشعر بالوحدة قط بل أنه استمتع بهما وحدته وهي ، فقد استطاع من قبل أن يتغلب على سطوة أبيه، وآثر العيش في هذا المكان النائيّ ليستمتع بوجودها معه ، تجاهل زفرات الألم التي تسرب أنينها من العيون المتكلمة لمن أحببنه بينما صمتت أفواههن، لن يتركها الأن تبعد عنه رغم أنه لا يعرف كيف يعيدها مرة أخرى إذا تركته ، لعله عندما يعود للديار يعود كل شيء لطبيعته.

كل هذا دار بخلد أنس طوال الطريق مما جعل سيسل تمل صحبة هذا

الصامت ولكنها أخذت بين حين وأخر تسرق نظرات إليه مستغلة انشغاله بأفكاره التي لا تعلم عنها شيئاً ، فهي تشعر أنها رأته من قبل ، وتعبت من سرد صور كل من قابلتهم خلال حياتها كلها بمخيلتها لتتذكر أين رأته لكن دون فائدة ، لكنها أحست بألفة واطمئنان في صحبته مما جعلها تقبل السفر معه وحدهما ، ولما يئست من البحث في دفاتر صور ذاكرتها ،فعادت للنظر للحقول المارة على جانبي الطريق . أدهشها منظر البيوت المتراصة بعشوائية وبدائية رغم أن معظمها بُنى بالمواد الحديثة وقد تعددت طوابقه، ولكن أعجبتها البيوت الريفية التي بنيت بالطين وسقفت بالخشب ولا تزيد عن طابق أو اثنين والتي أبقى عليها أصحابها لسبب ما قد يكون الفقر ، وبينما تتوالى مشاهداتها للقرى والبيوت القابعة في قلب الحقول لفت نظرها أبراج لم ترى مثيل لها من قبل ،كانوا أربعة أبراج ملتصقين ببعضهم ولهم قاعدة واحدة مشتركة ،تناثرت بكل منها فجوات عديدة ،والطيور تحوم حولها فطلبت سيسل من أنس أن يتوقف فلبى أنس طلبها على الفور ، فاتجهت للحقول ووقفت على حد أحدها مستظلة بشجر الكافور المتراص على جانبي الطريق موجهة نظرها للأبراج وهي مبهورة بهذا المعمار الغريب، ثم سألت أنس عنه فأجابها :

ـ إنها أبراج الحمام .

ـ وهل تبنون للحمام أبراج ؟ ألا يسكن الاشجار أو يبني أعشاشه بأسطح البيوت ؟

ـ كما ترين لا يوجد غابات ببلادنا ، والحمام صديق قديم للمصري لذا بنى له بيوتاً ، أقصد هذه الأبراج التي ترينها.

ـ إنها تحفة معمارية ، إنها حية جدا وجميلة جدا.

ـ هل ترين سرب الحمام هذا وهو يطوف بالحقول ، إنه منظر لا يمل المرء النظر إليه.

أخذا يتتبعا السرب في اقترابه وابتعاده وكأنه يمثل أرواحهما الهائمة وقد حلقت معه أفكارهما في لحظة صامتة.

شعرت سيسل بذات الشعور الذي يحتويها وهي تحلم تلك الأحلام التي لم تعرف تفسيراً لها حتى هذه اللحظة ، ثم اتجهت أفكارها لهذا الشخص الغريب عنها الواقف بجانبها متعجبة من نفسها متسائلة لِمَ تشعر أنها تعرفه جيداً ؟ لِمَ هي متأكدة أن صحبته ليست بالشيء الجديد عليها، بل هي معتادة عليها بل ومشتاقة إليها .

أما أنس فكان يبحث في داخله عن طيفه الغائب منذ الصباح ولكنه طمأن نفسه أنه سيجدها في الديار ، خشي أن تشعر سيسل بقلقه وأن يفسد عليها رحلتها فقطع الصمت بسؤالها:

- هل ستقتصر زيارتك على القلعة فقط ؟
- لم أفكر فى شيء آخر غير القلعة فأنا أحاول أن اكتشف جديد و أبدأ من حيث انتهى الآخرون .
- فلتسمحي لي أن آخذك إلى حيث لم يذهب هؤلاء الآخرون .
- أين؟
- أولاً القلعة كما ترغبين ثم ... فلنترك هذا الأمر لحينه .

إذاً إلى القلعة أولاً.

-١٢-

المبخرة النحاسية

ذابت سيلفيا حباً وولهاً بما أحاط بها من جمال الشرق الغامض ، مسحورة بألوان الصيف الساخنة الممزوجة بملوحة البحر وعذوبة النيل .

أحبت حياة أهل رشيد وإسلوب معيشتهم و دونت ما رأته في رسوماتها الأولية محاولة تسجيل كل ما تميز بمصريته الشديدة ، فرسمت حقول الأرز والقمح الممتدة مدى البصر، لايقطعها سوى صفوف النخيل المترامي ، رسمتْ طيبة اكتسبها أصحابها من فيض النيل وابتسامة رضا لفلاحين بجباه حرقتها حرارة الشمس ، رسمت الشوارع والحارات المظللة بالكامل بمظلات صُنعَت من الأخشاب والقماش ،ضمت بأحضانها أسواق العطارة والحبوب والأقمشة ومختلف الأصناف التي جاءت عبر البحر، وقد ماجت بالتجار، ببشر مختلف النوع والبلدان والملل .

رسمت البيوت بشرفاتها المقفلة بخشب مشغول وكأنه شباك الصيادين والمسمى بالمشربية ، وقد حجبت خلفها جمال الشرق الغامض وعطور النساء ، بينما ينسلّ من عيونها دخان أبيض زكى الرائحة منبعث من بخور ممزوج بالمسك والعنبر جيء به من بلاد أسيا البعيدة ليستقر على جمرة فحم بمبخرة نحاسية حُفر عليها نقوش نباتية إسلامية تمازجت انسيابتها مع انسيابية الدخان المنبعث منها مما دفع سيلفيا لرسمها بلوحة منفردة بعد أن رأتها بمنزل أهل عُمَر .

طلبت سيلفيا من غالية ابنة خالة عمر أن تعيرها بعضاً مما تلبسه فقد ضاقت بهذه الملابس المتكلفة ، الضيقة من الصدر والثقيلة من الوسط ،

وقد نشأت صداقة بين غالية وسيلفيا رغم اختلاف الثقافات لكن فطرتهما البسيطة التي لم يشوبها عوامل اختلاف الدين والثقافة والتي نشأ عليها الاثنتان قصرت المسافة بينهما وأزادت من اقترابهما من بعضهما ، إحساس مشترك تجاه شخص واحد وهو عُمَر .

أما عمر لم ينس هيئة سيلفيا عندما خرجت من حجرة غالية برداء شرقيّ مطرز ،وقد لفت حول رأسها وشاح قطنيّ النسيج واللون وكأنه هالة من نور، و لفت حول جسمها ملاءة سوداء تنحل من حولها كلما خطت خطوة ولكن استمرت محاولاتها لإتقان استحكام الملاءة حول جسدها الصغير كما تفعل أي امرأة مصرية ، فرأف عمر بحالها فأشار لملائتها وقال عمر :

ـ لستِ في حاجة لهذه .

ـ لا ، إني أشعر بالراحة وهي تلف حولي ، إن فيها سحر ، كل ما حولي سحر.

أخذت سيلفيا تدور ضاحكة وهي تفرد ملائتها بذراعيها وأخذت تدور وتدور ودارت معها خيالات عمر فرأها حورية أرسلتها السماء إليه ، ثم هربت خيالاته بمجرد أن سمع غالية تسأله:

ـ إلى أين سنذهب اليوم يا عمر؟

توقفت سيلفيا عن الدوران ونظر عمر لغالية ثم توجه بنظره لسيلفيا التي تلاحقت أنفاسها من شدة الدوران وقال :

ـ كما تريد سيلفيا ، فهي لم ترَ شيئاً بعد إلا القلعة ، فسألها بالفرنسية :إلى أين تريدين الذهاب سيلفيا ؟

ـ لا أريد أن ارى ، أريد أن أشعر.

تنظر لعمر باحثة بعينيه عن جواب لسؤال لم تسأله ، فبادرها وكأنه فطن لما تريد

فقال مبتسماً : هيا فأنا عرفت إلى أين نتوجه اليوم ولكن قبل أي شيء

انزعى هذه.

رفعت سيلفيا نظرها فبادلت عمر نظرة متجنبة كثيراً وقوعها ، بينما انسلّت الملاءة من على كتفي سيلفيا حتى استقرت تحت قدميها.

لاحظت غالية تلك النظرة وأحست بما يخفيه عمر وسيلفيا وقد فضحتهما سعادة تريد القفز من مآقيهما ، أمسك بلجامها شجن وألم الشوق لميلاد طفل محكوم عليه بالسجن الأبديّ.

-١٣-

أين أنت ؟

تعجب أنس من ردود أفعال سيسل عندما وقعت عيناها على القلعة التي بدت من بعيد ، فكأن عيناها تجمدتا باتجاه القلعة وقد شحب لونها وانزلقت منكمشة في مقعد السيارة.

ـ انتظر من فضلك ، انتظر قليلاً.

أوقف أنس السيارة على جانب الطريق وكانا مايزالان بعيدين عن القلعة .

ـ هل أنتِ بخير ؟

ـ شعرت أني أختنق ، كلما اقتربنا من القلعة يزداد الاختناق .

ـ القلعة ؟! تلك ؟

ـ نعم (تحاول التقاط انفاسها) انا الان بخير، فلنكمل لكن أرجوك سِرْ ببطء .

أخذت سيارتهما تقترب ببطء من القلعة والتي بدت جاثمة كعجوز أكلَ منها الدهر وشرب ، ثم ارتجلا ليكملا طريقهما اقتراباً من القلعة التي لم ترفع سيسل نظرها عنها فكانت تنظر إليها بذهول وقد اتسعت عيناها و ازدات زرقة .

وما أن وصلا للجدار حتى بدأت سيسل تتلمس أحجاره وتشمها وتضع أذنها عليها وكأنها تنصت لشيء ما ، مما جعل أنس يصدق قول صديقه بأنها غريبة الأطوار حقاً.

ـ هل أستطيع أن أسألك (ماذا تفعلين ؟»

ـ أحاول أن أسترق السمع علها تبوح لي بسرٍ ما .

ـ أنتِ غريبة الأطوار حقاً مما يجعل صحبتكِ مسلية .

لم تلتفت له سيسل فقد كانت منهمكة فيما تفعل ، تحاول أن تلمس بأناملها أي خدش أملاً أن تكتشف أنه حفر لكتابة ما، ولكن سرعان ما تصيبها خيبة الأمل فتنتقل لأخرى ، واستمرت فيما تفعل وقت طويل حتى أنهكها التعب ، وأنس يتتبعها ويتأمل تحركاتها باستمتاع ، وأثناء هذا تعجب من نفسه وما يعتمل بها ، خفقات قلبه التي تتزايد كلما التقت عيناهما ، روحه التي تهفو إليها وكأنها رفيقة الطفولة ، حتى أنه هو من طلب أن يراها ،وهو الذي يفضل العزلة والابتعاد عن البشر دائماً ، وهو الذي لم تهفو نفسه من قبل لرؤية أحد ، وها هو لا يمل رفقة امرأة لا يعرفها ولم يرها إلا من ساعات .

كانت الأفكار تدور بعقل أنس وتدق به كالأجراس ولايدري أهي أجراس فرح أم أجراس إنذار ، ولم يوقفها إلا صوت سيسل تطلب منه أن يرافقها لداخل القلعة ، فدلفا لداخل القلعة وأخذت سيسل تتلفت وهي تسرع الخطوات لداخل القلعة حتى وقفت تتوسط المكان وقالت لأنس وهو مقبل نحوها :

ـ هذا المكان جسد مصريّ بزيٍ مملوكي تملأه ندبات فرنسية وقروح انجليزية ، لن أجد هنا سري.

ـ أي سر؟

ـ لا عليك ، فلنكمل جولتنا للداخل؟

ـ سأتقدمك أنا هذه المرة ، هيا .

وسار أنس لداخل الممرات المؤدية لحجرات الجنود ومخازن الذخيرة ثم استدار ليأخذ بيد سيسل فأمسكت بيده وهي تثبت خطواتها وسط الأحجار الملقاة بأرجاء المكان ، وفي هذه اللحظة هبت نسمة باردة لفحت وجهيهما

فرفعت سيسل عينيها لأنس بدهشة متسائلة :من أين أتى هذا النسيم في مكان مغلق كهذا فوجدت أنس وقد تجمدت مقلتا عينيه الناظرة إليها، ولكنه أيضاً ينظر لبعد آخر ، فقد كان يسمع في نفس اللحظة التي أحس فيها ببرودة لفحة الهواء العابرة ، صوت من حدثته في مرسمه من قبل (أين أنت ؟) ، ثم سمع صوته وهو يقول :

أسبح ...

رد أنس بصوت مسموع ولا يعرف لماذا نطق بهذه الكلمة فهو لم يقصد النطق بها ، بل خرجت من شفتيه دون المرور بعقله ، فازادت دهشة سيسل وشعرت بيده الممسكة بيدها ترتجف وقد زادت برودتها وكأنها قطعة من الجليد ،

ماذا ؟ ماذا قلت ؟ وتدعي أني أنا غريبة الأطوار .

- ألم تقولي شيئاً الآن ؟
- قلت (وتدعي أيى أنا غريبة الأطوار)
- لا .. لا .. قبل هذا .
- لا شيء على الإطلاق .
- ألم تقولي (أين أنت) ؟
- ولِمَ أقول هذا ؟ فأنت أمامي بالفعل ، ثم إنك ترتجف ، بدأت تخيفني .
- لا عليكِ فأنا أعرف من قال هذا .
- من ؟
- لا تشغلين بالكِ أنتِ ، فأنا سأبتعد قليلاً حتى تنتهي مما تقومين به.
- أنت ترتجف يا أنس .
- أعرف ، لا عليكِ سأكون بخير ، استمري انتِ وسأنتظرك.
- حسناً ، سأتفحص هذه الغرف.

ابتعد أنس وهو يخفي رجفته التي ما زالت تسري بجسده بالرغم من سعادته لأنه أدرك أن زائرته لم تتخلى عنه ، بل تحدثت إليه للمرة الثانية ، ولكن ما حيره حقاً أنه أجاب بكلمة لم يفهم معناها ولا يدري لم نطق بها ، وجال بخاطره أن يكون مسه الجنون ووضع هذا الاحتمال في اعتباره فهو جائز وأمر محتمل لا يجب أن يغفل عنه.

وبينما هو غارق بأفكاره سمع صوت سيسل منادية باسمه ، فأجابها مهرولاً خوفاً أن يكون أصابها ضرر ، ولكنه وجدها تحاول إخراج قطعة من حجر صغير وقد تزعزع من مكانه بالجدار ولكنها لم تستطع إخراجه وحدها ، فأقدم أنس لمساعدتها وجذب الحجر للخارج ، وما أن انتزعه من مكمنه حتى تلقفته سيلفيا بلهفة شديدة سرعان ما انطفأت حينما قلبته بين يديها واكتشفت أنه حجر عادي لا يحمل أي سر من الأسرار التي تبحث عنها وسألها أنس :

- هل اكتشفتِ شيئاً؟
- (بحزن) لا , انه حجر عادى جدا
- لِمَ حجمه إذاً ليس كباقي الأحجار التي بنيت بها القلعة ولِمَ تحرك من مكانه ، فلو كان ثابت من البداية لما تزعزع ابداً ؟
- أنت محق .

ونظر الاثنان لبعضهما ثم توجها بنظرهما للفجوة التي انتزعا منها الحجر، إنها مظلمة تماماً ، فنظرت سيسل لأنس ليتقدم هو بفعل شيء ، وفهم أنس قصدها فمد يده داخل الفجوة ليستكشف ما بها وبالاستعانة بحاسة اللمس وصف أنس ما تلمسته يده في الظلام :

- إنه قماش أو شيء ملفوف بالقماش .
- قالت بلهفة : اسحبه .. اسحبه.

بقماش بالٍ أحاط لفافة اسطوانية سحبها أنس وحملها بين كفيه بحرص

شديد وتلقفتها سيسل منه بنفس الحرص ، عندها تنهد أنس وهو يقول لها مشيراً للفافة:

ـ أعتقد أنكِ للتو وجدت سركِ .

-١٤-

قصة حب

كان يجب أن تجد سيسل مكاناً مناسباً تستطيع فيه فحص اللفافة فاتجها لمنزل أنس ، وعندما ارتجلت من السيارة أمام بيت أنس وقفت لوهلة تشاهد البيت البدائيّ بشيء من الإعجاب ، وبينما يتجهان لغرفة المكتب بخطى سريعة سألت سيسل أنس عن البيت :

ـ بسيط ومختلف ، هل أنت من صممه .

ـ ليس بالضبط ، لكنه على غرار فكر المعماري حسن فتحي فأنا من أشد المعجبين به .

ـ إنه رائع .

وقعت عينيها على الكتب المتناثرة بكل أرجاء الغرفة وأكملت:

ـ رغم بساطته ورغم ما تسكنه من فوضى .

تجاهل أنس الجملة الأخيرة وتقدم سيسل ، ثم أزاح ركام الأوراق المستلقية على مكتبه المسكين بحركة واحدة من ذراعه ، وبحرص شديد وابتسامة يشوبها القلق وضعت سيسل اللفافة على المكتب وجلست على مقعد بينما ذهب أنس لإحضار مقعد له .

ـ تعتقدين كم من السنين مرت على هذه اللفافة ؟

ـ الكثير لكنه لا يتعدى القرنين من الزمان.

ـ أجابت سيسل على سؤال أنس بينما تحل القطعة القماشية من حول اللفافة برفق شديد خوفاً أن تتهتك بين أصابعها ولكنها كانت على دراية بما تفعل .

- إنها لوحة ، بالتأكيد لوحة مرسومة بالزيت ... ابسطيها.
- كيف علمت أنها لوحة ؟
- أنا رسام .. هذا ما أعيش لأجله.
- وما هذا الذي بداخلها ؟
- إنها مجموعة من الخطابات ، فلنر ما باللوحة أولاً .
- وبسطت سيسل اللوحة بيديها الصغيرتين على صفحة المكتب ، وأخذا يتأملاها .

وبشقهة عنيفة سحبت بها سيسل أنفاسها وهي تضم وجهها بكفيها من صدمة لم تتخيل وقوعها بمجرد أن تأملت محتوى اللوحة مما جعلها تهب واقفة ، وأنس حائر بينها وبين اللوحة .

- ماذا؟ تكلمي ماذا حدث؟
- إنه هو (وهي تشير بإصبعها نحو اللوحة) أنا رأيته .. أنا أعرفه .
- من ؟ هذا؟ الشخص الذي باللوحة؟
- نعم .
- ألم تخبريني أن هذه اللوحة مر عليها أكثر من قرنين .
- نعم ، لكني أعرفه .. يا إلهي إنه هو .
- أجلسها بمقعدها وجلس مكانه وهو يحاول تهدئتها : اهدئي قليلاً ،تنفسي بعمق واهدئي.
- أنقذني من الغرق ورأيت وجهه جيداً وهو يجذبني لأعلى ، إنه هو صدقني .
- هل غرقتي وأنقذك شخص من عصر فات و ولى ؟؟
- قالت وقد هدأت قليلاً : نعم ، حدث هذا في حُلم .
- ماذا ؟
- أرجوك لا تستهن بما أقول .

ـ لا ، لِمَ ؟ ولن أستهين به ابداً ، ولكن أروي لي وتيقني أني سأفهم .

ـ وهمّت سيسل بالبدء في سرد أحلامها الغريبة لأنس لكنه قبل أن تبدأ رفع أنامله على فمها وهو يقول :

ـ أولاً نتناول شيئاً من الطعام ونشرب الشاي .

ـ بالفعل إني أتضور جوعاً

بعد أن تناولا ما استطاع أنس تدبيره من طعام تناولاه بشهية ونهم ، أحضر أنس الشاي وبدأ بصبه بفنجانين من الطراز القديم بينما يقول :

ـ أرجو ألا يضايقك الاحتساء بالفنجان .

ـ بالعكس أنا لا أحتسيه إلا بالفنجان ومن هذا الطراز بالذات حتى إني، تابعت وهى تميل على حقيبتها لتخرج منها شيئاً ما: احمل معى فنجانى دائما , انظر.

وهنا نظر لها أنس بتعجب وقد رأى فيها بعداً آخر ، تبدد قلقه من أن يغيب عنه مؤنس وحدته فشعر أنه تجسد في غريبة الأطوار ، وقبل أن ينجرف في سيل أفكاره كعادته دائماً ، تدارك نفسه بسرعة محاولاً الخروج من حالته الغريبة هذه فبدّل الموضوع بسؤالها عن أحلامها العجيبة وهواجس نفسها، فروت له بالتفصيل كل أحلامها وما تشعر به والذي أسمته صديقتها المقربة (العالم الاخر)، وكيف أن حضورها لِمصر لم يكن سوى لسبب واحد وهو أن تكتشف سر أحاسيسها تجاه مجهول ولكنها على يقين منه رغم أنها لم تستطع ابداً أن تبلور كينونته ، لكنها على يقين أن لهذا كله علاقة وثيقة بتاريخ سيلفيا فترة وجودها هنا بِمصر بل برشيد نفسها . لمس حديث سيسل وجدان أنس وبدأ يشعر أن ثمة رابط يصل بين ما يحدث له وما ترويه سيسل له الآن ، لكنه لا يعرف ما هذا الربط ، فهو نفس الحدس ونفس اليقين ولكنه لا يرى أحلام ، بل يشعر ويسمع ، فرد على تساؤلاتها قائلاً:

ـ يجب أن يصدق الإنسان نفسه دائماً فهو أقرب كائن لها وأعرف الناس بها ، فكيف يعرف غيره عنها أكثر منه ، وكل شخص آخر يدعي معرفة نفسك جيداً لا يفعل سوى إجبارك على سلوكه هو الشخصيّ في الحياة.

ـ لأن من يفعل هذا لا يرى في درب الحياة سواه ، وتصوِر له نرجسيته أنه لا يوجد طريق صحيح سوى طريقه هو ، وما عداه فشل وضياع ، مثل هؤلاء لا يملون اختراق عزلة غيرهم والتدخل في شئون لا تعنيهم فى شيء .

ـ أرى أنكِ مثلي من محبي العزلة .

ـ وأنا أرى أنك مثلي تشعر بوجود شخص ما ،خفي يعيش معك .

نزلت كلمات سيسل على أنس كالصاعقة ، زلزلت خلاياه الهادئة وجعلتها تتناحر وتتزاحم فيما بينها في هيئة قشعريرة سرت بكامل جسده .

ـ أنا لم أقل لكِ أنني أشعر بوجود شخص يعيش معي.

ـ أعرف .

لم إذاً . . ؟

ـ لانى اعرف .

ـ كيف ؟

ـ شعرتُ بهذا عندما كنا في القلعة ، عندما هبت تلك النسمة الباردة ، وعندما شعرت برجفة يدك .

ـ وهل عندك تفسير منطقيّ لما يحدث ؟

ـ كنت أتمنى أن أجد أنا عندك تفسير لمن يشعر أن بداخله جزء من شخص آخر رحل عن عالمنا منذ سنين.

ـ لن تجدى تفسير بل سيزداد إحساسك به حتى يأتي يوم ويتجلى لكِ كل شيء.

ـ أشعر أني أقترب.

ـ وأنا كذلك.

بعد قليل اتخذا أنس وسيسل مكانهما كلٌ على مقعده الرابض أمام حامل خشبيّ ركنت عليه اللوحة المجهولة بعد أن ثبت أنس أطرافها الأربع بإطار خشبيّ ، لتتمكن عيناهما من التجول بكل تفاصيل اللوحة ، وقد أُخذا يفكران ، فقد شعر كل منهما أن هذه اللوحة تمس حياته في نقطة ما.

أنس الذي كان يجلس على مقعده بشكل معكوس نظر لسيسل مشيراً للوحة وهو يقول:

ـ ألا تتذكرى أي شيء عن هذا الشخص باللوحة ؟

ـ أعرفه . . أعرفه جيداً لكني لا أعلم عنه شيئاً إطلاقاً ، كأني قابلته في مكان آخر في زمن آخر ثم فقدت الذاكرة بعدها , (مبتسمة بسخرية) لكنى لا اتذكر انى فقدت ذاكرتى من قبل , (بخجل) قد تعتقد انى مجنونة.

ـ لا بالعكس ، افهمك جيداً ,(ملتفتاً للوحة) ولكن يجب ان نبحث عن تفسير ، انظري ، ليست موقعة .

حل أنس اللوحة من الإطار وأخذها للمكتب ففردها عليه ليتفحصها من الخلف جيداً بينما قامت سيسل بتوجيه الإضاءة من المصباح الذي اتخذ مكانه هذا على المكتب منذ سنوات ، فأمسكت سيسل برقبته لتركز الضوء على كل موضع يتفقده أنس .

ـ هاهي ذا ، انها جُمل بالفرنسية، الكلمات تكاد تختفي فهذه اللوحة واضح أنها منذ زمن طويل .

ـ فلنحاول قراءتها .

وأخذ يقرأ بصوت منخفض قليلاً وكأنه يحاول حل شفرة ما .

ـ « انت حيث تركت روحى» ألم تلاحظ ؟ انها تتعذب

ـ سيلفيا لاكورتيني . . كانت تحب مِصري ، يا لها من قصة رائعة.

ـ هل تعرفينها ؟

ـ بالطبع ، إنها فنانة من أوائل القرن التاسع عشر ، رسمت لوحات عديدة ورائعة معظمها عن مِصر ، وأنا هنا بسببها ، لم أخبرك حتى الأن أني ابحث عن تاريخ أعمالها ، بل الأكثر من هذا أني أشعر دائما أن بيني وبين هذه السيدة رابط من نوع خاص ، لكني لم أعلم من قبل عن قصة الحب هذه.

ـ هى أحبت مِصري قد يكون هذا هو سبب إخفاءها هذا الحب (أنت حيث تركت روحي) ألم تلاحظ ؟ إنها تتعذب، أقصد روحها تتعذب.

ـ لاتتعجلي بالنتائج ، مازال أمامنا بحث طويل ، دعينا أولاً نتأمل اللوحة جيداً علنا نعثر على شيء ما.

اتخذ كلا من أنس وسيسل مكانهما السابق بمقعديهما بعد أن أعاد أنس تثبيت اللوحة ، وبعد برهة قال أنس :

ـ هل ترين هذه الساقية بالخلف ، إنها بعيدة على الضفة الأخرى للنيل .

ـ نعم أراها .

ـ أظن أني أعرف مكانها .

اتجه أنس لمكتبته المكتظة بالكتب والأوراق ،وبعد أن تجول بنظره جذب من بينها كتاب قديم وأخذ يتصفحه وسيسل تتبعه بانتظار متلهف .

ـ هاهى الساقية (مشيراً لصورة مرسومة بالكتاب) انها هنا برشيد ، مازالت موجودة حتى الأن لكنها قديمة جداً ومهترئة.

ـ إذاً قصة سيلفيا السرية كانت هنا برشيد ، ثم؟ ماذا بعد؟

اتجه أنس للَّوحة مرة أخرى وأخذ يتنقل بنظره من اللوحة للكتاب والعكس وسيسل تنتظرالإجابة على تساؤلها.

ـ انظرى ، أبراج الحمام بالخلف عند الساقية ، أبراج الحمام بلوحة

سيلفيا كانت في المرحلة الأخيرة في البناء ، فمازال البرج الأخير لم يكتمل لكنها هنا، بالكتاب مكتملة .

ـ كالّتي رأيناها ونحن في طريقنا لهنا ؟

ـ نعم ، اللوحة بالكتاب رُسِمت سنة ١٨٠٢، إذاً من المؤكد أن لوحة سيلفيا من سنة ١٨٠٠ أو ١٨٠١.

خطفت سيسل حقيبتها واتجهت مندفعة نحو الباب وهي تقول لأنس :

ـ فلنذهب .

ـ إلى أين؟

ـ للساقية .. للابراج .. هناك (مشيرة للخارج).

ـ انتظرى قليلاً ، لقد انتهى اليوم وحل الليل فيجب أن تعودي للاسكندرية وأن نعيد السيارة لتيمور ،أعتقد أن المسكين قضى يوماً شاق بسببنا.

ـ نعم ، أمامى ليلة طويلة في البحث والدراسة ، مازالت هناك هذه الرسائل وعلي قرائتها ، كما يجب أن أخبر أستاذي بما وجدناه علّه يخبرني بجديد .

نظر أنس لسيسل التي حاولت إخفاء شعور غريب ساورها حينما ذكرها أنس بأن لهذا اليوم نهاية ، فهي لا تريد نهاية لهذا اليوم ، تريده أن يستمر للأبد ، نفس الشعور الذي سرى بوجدان أنس حتى أنه نسى رفيقة وحدته فأخذ يملأ عينيه من سيسل محاولاً ألا تنبس منه كلمة تُظهر ما يشعر به ، أو بتعبير أدق ما يشعر به كلاهما.

-١٥-

المهرجان العظيم

على ضوء القمر تراقصت مئات المئات من الأسماك القافزة بفرحة اللقاء بين أمواج مياه فيضان النيل ومياه البحر منقضين على الغرين الذي أحضره النيل من منابعه الأولى ،وليمة دسمة للأسماك المهاجرة القادمة من أوروبا عابرة على المدينة التي تشهد هذه الإحتفالية السنوية .

اختلطت أصوات أمواج البحر حاملة الأسماك والمياه الجارية للنيل و الغرين بزغاريد النساء حاملات لأقفاص وسِلال صُنعت من جريد النخيل مع صياح الأطفال ،حاملين المصابيح والقناديل الصغيرة ، وتوّج هذه المعزوفة الصاخبة غناء صيادين تحملهم مراكبهم الصغيرة ، ممسكين بشباكهم للحصول على نصيبهم من وليمة ضخمة من أسماك تغذت على الغرين وقد كبر حجمها وزاد خيرها، انتظرتها الزوجات بصفائحهم وملحهم لإعداد مخزون العام من الأسماك المملحة .

أصطحب عُمر في هذه الأمسية سيلفيا، ورافقتهما غالية ليشاهدوا هذا الأوبريت الراقص العظيم وتراقصت قلوبهم مع الأسماك الراقصة بصحبة أمواج البحر الممزوجة بدوامات النهر.

فلم تستطع أجسادهم اليافعة ومشاعرهم المتأججة بإثارة الشباب أن تقاوم المشاركة في تفاعل الطبيعة هذا ، فما شعروا بأنفسهم إلا وهم يشاركون في هذا الإحتفال فتراشو بالمياه وطاردوا الأسماك المتقافزة محاولين الإمساك بها بأيديهم وعندما فشلوا تضاحكوا وفي النهاية اكتفوا بالمشاركة في الغناء .

وعادت سيلفيا بأقاصيص عديدة لترويها لأبيها الذي ائتمن المِصري في صحبتها فيتفرغ هو لعمله هادئ البال وليمضي أكبر وقت ممكن لما أتى من أجله ، فاستطاع أن يعالج الكثير من الأمراض التي حملها معهم الجنود الفرنسيون وسقط الكثير منهم من جراءها.

ساعده على العلاج استعانته بشيخ مِصري وهو عطار اشتهر ببراعته في التداوي بالأعشاب الطبية والتي يستقدِم بعضها من دول الشام والبعض الأخر من بلاد الهند ، وكان لعُمَر الفضل في تعارف الطبيب بالعطار ، فالشيخ العطار هو والد غالية وقد أعجب بالهدف السامي الذي أخرج هذا الطبيب من بلاده وجعله يرتحل من بلد لأخر فرحب بالتعاون معه وإشراكه في خبرته الطويلة .

وسعد الطبيب بهذه العلاقة الفريدة المنزهة من أي غرض وأودع ابنته في رحاب دار العطار، فأنست بصحبة حريمه وكانت محل اهتمامهن أيضاً .

شاركتهن سيلفيا في صنع السلال من جريد النخيل وتمليح وتجفيف السردين وغلي البندورة بعد عصر كميات كبيرة منها لتخزينها ، كما شاركتهن مجالسهن في ساحة الدار يستمعن لثرثرة الدلالات ويتضاحكن عليهن، بينما يقلبن ما أحضرن من بضائع بين أيديهن ، فيعلو الضجيج على صوت خرير المياه المتقافزة من نافورة اتخذت موضعها وسط ساحة الدار، وقد التفت بها شرائط من دخان المبخرة فنثر بالمكان رائحة زكية تهدئ النفوس وتضفي على المكان سحراً خاص جداً.

ورغم انبهار سيلفيا بجو الشرق الساحر إلا أن النيل كان محل إعجابها الأكبر فكثيراً ما كانت تقضي ساعات وساعات في رسم لوحات له وللمراكب والبيوت الساكنة بضفتيه ، وأعجبت غالية بقدرة سيلفيا على التدوين بالرسم مما زاد استمتاعها بصحبة سيلفيا وقضاء الساعات الطوال بضفاف النيل معها، مما أنشأ نوع خاص من الصداقة بينها وبين سيلفيا رغم اختلاف

اللغة والثقافة ، فنشأت بينهما لغة خاصة بهم ، بعد أن كان عُمَر يقوم بالترجمة ليسهل التواصل بينهما والذي كان يرافقهن في عطلاته فيقضي يومه كله معهما بجانب النهر ، محاولاً اختلاس النظر وحفظ أكبر قدر من الصور لسيلفيا بذاكرته ليسترجعها عندما يضطّر للابتعاد عنها .

صنعوا ذكرياتهم في أيام قلائل شاركهم فيها النيل الذي دأبوا على تسابقه، وسابقتهم ضحكاتهم المرحة كالأطفال ونسوا كل شئ، ولم يشعروا إلا برزاز تحرر من أمواج النهر عند تلاطمها بالشاطئ فرطب وجوههم بعد أن لفحتها أشعة الشمس ، فازدادوا انتعاشاً ومرحاً .

ولما استنزفوا كامل طاقاتهم تهاووا على حشائش حانية نَمَت بجوار ساقية رابضة على حافة النيل ، تبعد عنها بمسافة ليست ببعيدة أبراج حمام تحوطها هالة من طيور الحمام الهائمة في ملكوت ربها .

طافت معها روح سيلفيا التي ظلت واقفة وقتاً طويلاً متأملة هذا المشهد ، أحست أن به روحانية وبُعد أعمق مما يبدو عليه ، فأطلقت لروحها العنان لتحلّق بالسماء برفقة طيور حرة لم تعاني مرارة الحروب.

أعادتها غالية من رحلتها عندما نادتها قائلة :

ـ يجب أن ترسمي هذا المنظر ذات يوم ، أعتقد أنه يوجد مثيل له بفرنسا.

ـ لا ، الحمام بأوروبا طليق بالميادين ، لم نفكر قط ببناء بيوت له ، ولكن الآن ببلادي حتى الميادين أصبحت ميادين حرب فخلت من الطيور ومن الحب.

شعر عُمَر بنفس الغصة التي كانت سيلفيا تعاني منها وهي تلاحق الطيور بعيونها ، فاقترب منها وقال :

ـ رغم أن انتهاء الحرب يعني رحيلك عنا إلا إني أتمنى انتهاء هذا الجنون الذي أصاب العالم .

ـ رحيلي ؟! أنا لن أرحل ابداً .. ابداً.

ثم رفعت نظرها لتنظر إلى عينيه المتسائلة في حيرة ، فنطق لسانه قائلاً:

ـ وأنا لا أريدكِ أن ترحلي ابداً .. ابداً.

-١٦-

ليلة مُؤَرِّقة

بعد أن أعاد أنس سيسل للفندق الذي نزلت فيه وقد اتفق معها أن يعاود صباحاً لاصطحابها ، اتجه لصديقه يطوي الطريق إليه طياً ، وبعد أن وصل أنس سرد لصديقه أحداث اليوم المتلاحقة ، صاح به تيمور عندما علم أن اللوحة بحوزة سيسل :

ـ كيف تركت اللوحة معها ؟ إنها أثر ومن حق الدولة ، و هي استحوذت عليها واعتبرت أن هذا حق بلدها فرنسا بالطبع .

ـ وما في ذلك يا تيمور؟ أليس من رسمت اللوحة فرنسية الجنسية؟

ـ لكنكم وجدتوها بمصر وهي عن مصر والشخص الذي باللوحة مِصري.

ـ اهدأ قليلاً يا رفيقي ، لم يحدث شيء ، إننا سنستكمل بحثنا غداً ، أقسم لك أنها لا تفكر في الاستحواذ على شيء، بل ما تفكر فيه أعمق من كشفها عن اللوحة .

ـ هذا ما تعتقده أنت ، لا تستبعد أن تكون الآن على متن طائرة عائدة لفرنسا لتبشِر أستاذها بكشفها هذا .

ـ هي بالفعل اكتشفت شيء باللوحة ،وليس اللوحة وحدها هي الاكتشاف ، كما أشعر أيضاً أني اكتشفت الكثير وأنا برفقتها .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ ألم تنتبه لما سردته عليك؟

ـ انتبهت لكني لم افهم .

ـ سيسل قريبة جدا جدا منها .

ـ منها ؟ مَن ؟

ـ رفيقتى المجهولة ، كأنهما شخص واحد ، لها نفس العادات ، الطبائع ، الصوت ، الحضور ، وأكمل هائماً بنظره بعيداً : لها نفس الروح .

ـ أنس .. استمع لي جيداً ، أنا كنت أسمع رواياتك عن رفيقتك المجهولة هذه وأعلم أن خيالك نسجها لك لتؤنس بها وحدتك بعد وفاة أمك رحمها الله ، فأنت لم تقترب من أى فتاة ولو على سبيل الفضول ، بل كنت تصد كل من كانت تحاول أن تتقرب لك ، وصنعت حول نفسك سياج من فولاذ، فلا تكن من الخبل بحيث تمزج الخيال بالواقع فلا تستطيع التفريق بينهما ، ستكون محل سخريتها إن هي عَلِمت بهذا الأمر و بأنك تعتقد ما أخبرتني به للتو .

ـ أرجوك يا تيمور توقف لحظة ، ظللت تستمع إلي طوال هذه السنوات وتجارينى ،وترسخ بذهني أنك تصدق كل حرف رويته لك وأنت في حقيقة الأمر تعلم أن خيالي نسجَ كل هذا ؟

ـ أرجوك افهمني .. أنا .. أنا لم أقصد هذا لكن ...

ـ لا عليك يا صديق العمر ، لا عليك ، قد يكون الخبل عرف طريقه إلى عقلي دون أن أدري، وكنت محل سخريتك بعد كل لقاء جمع بيننا واستمعت فيه لهذا الجنون .

ـ أنس ، بالطبع لا، لم أسخر منك ولو للحظة ، الأمر ليس كما تظن ، أرجوك .

ـ بل أرجوك أنا ، أفضِل أن أكون وحدي الآن ، أتركك على خير .

نزع أنس سترته من مكانها على مسند المقعد ثم نزع من جيبها مفاتيح سيارة تيمور ثم ألقى بها على الطاولة بينما وقف تيمور بحيرةٍ شلت تفكيره ولسانه فلم يعد يدري كيف يصلح ما أفسد .

أما أنس فخرج عن هدوئه وبخطى سريعة أزاح درجات السلم من تحت قدميه حتى خرج من العمارة التي يقطنها تيمور للشارع فتنفس بعمق، يريد إخراج أحزانه التي أثقلت رئتيه مع هواء زفيره المكتوم ، وساقته قدماه لشاطىء بحر الاسكندرية الذي خلا من البشر والعمران ، لا يسمع فيه غير صوت البحر ، فصوت البحر هو الصوت الوحيد الذي يريد أنس سماعه في هذه اللحظة ، فالبحر هو الوحيد الذى يصدقه وهو الوحيد الذي لديه الحقيقة التي بحث عنها أنس سنين .

أخذ أنس مجلسه على صخرة نتأت بين الأمواج الصغيرة التي استطاعت الوصول للشاطىء وكأنها تتحسس طريقها في هذا الظلام الحالك ، وألقى بنظره لأبعد مرمى بالبحر قد يكون للانهاية ، وشعر برزاز البحر ينقر على وجنته حاملاً عطراً ألفه دائماً ، همس للبحر :

ـ إذا كان هذا هو الجنون ، فأنا أريد أن أكون هذا المجنون .

ورجف كامل جسده عندما سمع نداء شديد القوة وواضح وسط هذا السكون العميق

ـ عُمَر.

تلفت أنس ليرى من نادى هكذا وليعرف من معه في هذا المكان النائي ، فلم يجد أحداً ، فساوره الشك وظن بالفعل أنه قد يكون الجنون عرف الطريق إلى عقله . . لابد أن يتأكد أنها هي ، ولكن كيف تكون هي من تناجيه وتلف بطيفها في محيطه وهي في بلد آخر وليس لديها أي فكرة عنه ، قد تكون مشعوذة وترسل له أشباحها ليأخذوا عقله لغياهب التخبط والتشويش ، و لكن أيضاً كيف ؟ وهي فتاة دارسة محبة للعلم بخلاف أنها بريئة جداً رقيقة جداً ، ليس من المنطق أن يكون لها علاقة بالسحر والشعوذة رغم أنها سحرت عقله بسحر من نوع آخر عندما رآها أول مرة بساحة مكتبة الاسكندرية .

تعب من التفكير الذي نسج آلم أطبق على جمجمته كالكلّابات المسننة ، فنزع نفسه من جلسته ورجع لمنزله برشيد ، فهو لا يريد أن يخذل غريبة الأطوار فلا يحضر لها صباحاً ليقلها بسيارة ، إلا أنه لم يستطع النوم مطلقاً فأخذ يعمل على لوحته التي كادت ملامحها الأساسية تظهر بوضوح ، عمل في ليلته هذه كما لم يعمل من قبل . شعر أن طاقة جديدة أحاطت بجسده المنهك ودفعته للانتهاء من عمله ، رأى تفاصيل لوحته بوضوح في مخيلته وأراد أن يلقي بها على اللوحة القماشية قبل أن تضيع منه فلا يجدها مرة أخرى للابد.

أشرق عليه الصباح وهو يعمل بمرسمه وكادت ملامح أنثى تنطق من خلال ضربات فرشاته باللوحة وكأن كل ضربة فرشاة هي نبض لقلب يخفق ، ينادي الحرية ، ولكن شعاع من شمس الصباح شق طريقه خلال المرسم حتى ألقى خيوطه على عيون أنس الذي انتبه لموعده مع سيسل فترك كل شيء وأسرع بالذهاب وهذه المرة مع سيارته الصغيرة والتي عانت معه الكثير دون كلل ، ولكن قبل أن يترك مرسمه ألقى نظرة أخيرة على لوحته الأثيرة ولاحظ أن الملامح التي برزت من اللوحة لا تشبه سيسل على الإطلاق فانتزع نفسه من دائرة التأمل تلك وأسرع للحاق بموعده.

أما سيسل فبدأت ليلتها الطويلة بقراءة الرسائل والتي اكتشف أنها مرسلة من سيلفيا لحبيبها المِصري ، تستجديه القدوم لفرنسا ثم اتجهت في الرسائل الأخيرة لنبرة يأس وعتاب لعدم رده على رسائلها ولكن بدون غضب من قسوته بل خوفاً أن يكون أصابه مكروه وليس بالرسائل اى شئ يدل على هوية هذا المِصري ولا حتى الاسم الأول ، فتسائلت سيسل لم هذا الحرص على عدم ذكر أي شيء عن حبيبها ، علها خشيت أن يعرف به أي شخص قد تقع بيده هذه الرسائل ، فيلحق به الضرر . . ربما !.

ثم أكملت ليلتها أمام حاسوبها باحثة عبر الشبكة العنكبوتية عن تاريخ

سيلفيا لاكورتيني وأهم ما رسمت ولم تجد فيها أي إشارة للوحة المِصري ، وأثناء ذلك كانت تحادث صديقتها سيرينا عبر المحادثة النصية وسألتها عن أخبار مايكل فأجابتها سيرينا أنه اختفى للأبد ، وحاولت سيسل التسرية عن صديقتها ثم روت لها يومها الحافل وكيف تغير مسار بحثها تماماً، وباحت لها بأن شعور غريب داخلها تجاه ذلك الشخص الذي لم تتوقع ظهوره في حياتها ورغم ذلك طمأنت نفسها له ، حتى أنها شعرت أنها تعرفه جيداً ، فنصّت لها خلال مستطيل المحادثة .

ـ منذ رأيته في ساحة المكتبة هذا الصباح وجدت نفسي أتجه له ،وكأن خيوط خافية جذبتني بدون وعي مني لأجد نفسي أمامه والغريب أنه لم يندهش كأنه كان بانتظاري .

ـ هل هو من ترينه بأحلامك .

ـ لا ، هذا موضوع أخر وأكثر غرابة ، لكني سأخبرك بشأنه في الوقت المناسب.

ـ أثرثر فضولي وتريدين تركي هكذا إلى وقته ؟

ـ لن أستطيع توضيح الأمر لأنه ليس واضحاً لي أنا شخصياً حتى الآن .

ـ أكملي اذاً حديثك عن ... ما اسمه.

ـ أنس ، أتصدقي؟ أشتاق إليه ، لم أكن أود فراقه.

ـ وما منعك من أن تعرضي عليه أن يبقى معك.

ـ لا أعرف لكني شعرت أن هذا الأمر لن يكون مناسب كما أنه لم يبد أي شيء يدل على أنه يريد أن يبقى.

ـ ألم تعرفي مشاعره نحوكِ .

ـ أعرف ولا أعرف ، ولاتسأليني كيف ،هذا لأني لا أعرف.

وانتبهت لصوت هاتفها الخلوي فقفزت نحوه، إنه أستاذها ،فانطلقت بسعادة تسرد لأستاذها الذي ينصت من الطرف الأخر باهتمام وإعجاب

مع شيء من الدهشة والقلق ، وختم حديثه معها قائلاً :

ـ عند ذهابك غداً للساقية تذكري أن مائتي عام كفيلة بتغيير معالم المكان كلياً .

ـ أرجو أن لايكون العمران قد زحف لهذه المنطقة ، فقد لاحظت هنا أن المباني وزحف المدن هو الشيء الوحيد الذي يمزق ثوب الأصالة والبيئة النقية التي يمتاز بها هذا البلد.

ـ أرجو لكِ التوفيق يا عزيزتي ، ولكن أرجو أن لا يستحوز هذا المِصري على ما قد تعثرين عليه وينسبه لبلده .

صمتت سيسل ولم تنبس بحرف ، فهي لم تفكر في هذا الأمر على هذا النحو ولا تريد أن تفكر فيه على هذا النحو ، ثم تداركت نفسها وأجابت أستاذها حتى تُحاصِر قلقه وهواجسه قائلة :

ـ هو مجرد صديق للدكتور تيمور وعرض المساعدة حتى دون مقابل ، أظنه يستمتع بوقت فراغه ليس إلا.

ـ أتمنى ذلك ، كما أتمنى أن تكونين أنتِ ايضاً مستمتعة بأوقاتكِ.

ـ أنا أستمتع بوقتي حقاً، ولكن سعادتي الحقيقية عندما أصل للحقيقة كاملة.

بعد أن أنهت سيسل حديثها الهاتفيّ اتجهت مرة أخرى للحاسوب ، وأثناء بحثها لفت انتباهها خبر صغير نوه عنه أحد المؤرخين في كتابه عن جنود الحملة الفرنسية الذين لم يرجعوا إلى وطنهم ومنهم رينيه لاكورتيني ابن عم سيلفيا لاكورتيني والذي قُتل أثناء إحباط مؤامرة نظمها بعض من السكان المحليين.

-١٧-
السرداب

كانت سيسل تختلس النظر لأنس طوال الطريق إلى مدينة رشيد بعد أن أخذها في الصباح من فندقها بالاسكندرية ، كانت تتعجب لتغيُر أنس الذي ظل متجاهلها طوال الوقت مثبّتاً بصره على الطريق ولم ينبس بكلمة .
(ليس هذا نفس الشخص الذي كان معي بالأمس ، ربما هو مجنون أو يعاني الشيزوفرينيا ، أو أن هناك ما يشغل باله ، أو ... لعله في حالة حب وهل هذا ما يفعله الشرقيون عندما يحبون ؟)
كل هذا كان يدور بخلد سيسل وقد احتارت في ماينبغى أن تفعل ، لكن طبيعتها المقدامة وفضولها المعهود بها جعلاها تسأله:

- هل أسبب لك الإزعاج ؟
- لا بالعكس ، لم هذا السؤال الغريب .
- لم تنطق بكلمة هذا الصباح .
- لاشيء ،لكن هناك بعض الأمور تشغل تفكيري.

صمتا برهة ، ولكن لم ترِد سيسل أن ينتهي الحوار عند هذا الحد فاسترسلت قائلة :

- حلُمت حُلم آخر ليلة أمس لكنه عجيب حقاً ، هل أسرده لك؟
- أكيد ، هل جاءك المصرى المجهول ؟
- لا ، لم أره هذه المرة .
- إذاً احكي فأنا منصت .

- رأيت حمامتان أمسكا بثوبي وأخذا يجذباني لاسير معهما حتى وصلنا

لباب خشبيّ شديد القدم ومتهالك جداً ففتحته لأجدني في وسط ساحة تحوطها أبراج مثل التي رأيناها البارحة ، تلك التي يعيش فيها طيورالحمام

ـ ثم ؟

ثم تقدمت خطوة لكني وقفت فجأة عندما وجدتني أقف على حافة هوة بالأرض ، وعندما أمعنت النظر اتضحت لي درجات سلم يقودني لأسفل لكني لم أرى نهايته من شدة الظلمة بالأسفل ، و لكني تقدمت ونزلت عدة درجات وكدت أنزلق لكن امتدت يد من الظلام وأمسكت بي فحمتني من السقوط ، وعندما نزلت وفي وسط الظلام تبينت سيدة صغيرة السن،رائعة الجمال ،كأن وجهها يشع ضياءً ، وشعرتُ أنها ليست غريبة عني وأني أعرفها جيداً ، ثم مدت يديها لي بصندوق صغير ، أتذكر جيداً شكله والنقوش التي كانت تزينه .

ـ وما كان بداخل الصندوق؟

ـ لا أعرف ، أيقظني جرس الهاتف من الاستقبال ليخبروني بانتظارك لي.

ـ ما أغباني ، أما كنت انتظر قليلاً حتى تعرفين ما بالصندوق .

ـ (ضاحكة) قد افتح الصندوق في حلم الليلة القادمة ، لكني توصلت لنتائج عن سيلفيا .

وسردت له ما توصلت إليه عبر بحثها بالشبكة العنكبوتية وعندما وصلت بالحكي لقصة مقتل ابن العم ، ألمح أنس قائلاً :

ـ معنى أن لقب ابن عم سيلفيا هو لاكورتينى وهو نفس لقب سيلفيا ، أن سيلفيا احتفظت بلقب أبيها حتى توفت، أي أنه حدث شيء من اثنين ، إما أنها لم تتزوج قط أو أنها احتفظت باللقب بعد زواجها، والاحتمال الثاني كان من الصعب تحقيقه منذ مائتي عام ، لذا أعتقد أنه الاحتمال الأول ، ولكن لِمَ ظلت بدون زواج كل هذا الوقت ...لأنها كانت مغرمة بالمِصري .

ـ لهذا الحد ؟ لدرجة أن توقف حياتها عند هذا الحب ؟ لا أعتقد .

ـ لماذا لايكون لهذا الحد ؟ لو فقدتي حب ما في حياتك هل ستتزوجين بأي شخص لمجرد الزواج؟

ـ لم أفكر في هذا الأمر من قبل لأنى لم أحب ، وأنت ؟ .

ـ أنا ماذا؟

ـ أحببت من قبل؟

ـ ومازلت .

ـ (وهى تحاول اخفاء غصة بحلقها والتى ظهرت فى حشرجة اصابت صوتها) اوه , انها تجربة مثيرة، قل ما حدث.

ـ ليست تجربة إنها حياة ومن لم يخضها لم يحيا.

شعرت سيسل بأنا فقدت الحياة وأن الهواء قد سُحِب من رئتيها فخنقتها الدموع ولتخفيها عن أنس لفّت وجهها تجاه النافذة لتستجمع نفسها مرة أخرى ، وأخذتها أفكارها فقد يكون غلاظته هذه أنه أحس أنها تخفي شعور ما نحوه وهذه محاولة لصدها ، ولماذا تهتم هكذا إنها لم تعرفه سوى من يوم واحد فقط ، ولوكانت بذرة من المشاعر قد نمى برعمها في هذا اليوم فهي تستطيع نزع نبتتها بسهولة ، وكل ما يجب أن تفكر فيه هو بحثها الذي أتت من أجله ، ثم سمعت صوت أنس يقول:

ـ هل يعقل أن أرواح المحبين تتلاقى دون الأجساد؟

ـ سؤالك غريب حقاً ، لكني لا أؤمن بالأرواح والأشباح ومثل هذه الأمور.

ـ إذاً بما تفسرين إحساسك بوجود شخص ما معكِ دائماً ؟ وكذلك بالنسبة لي .

ـ ألم تقل لي أن ليس هناك تفسير ؟! كما أن الأمر معي لا يتعدى الأحلام بأشخاص لا أعرفهم .

- أما انا فأعرفها حق المعرفة .
- أوه ، إنها امرأة ، ومن هي ؟
- ليس مهم الاسم لكنها معي دائماً ، وأعرفها جيداً ، أعرف طباعها ، عاداتها اليومية وماذا تحب وماذا تكره ، ولكني أشعر أنها تريد إخباري بشيء لا أعرف ماهو ، ولكني أشعر أني أقترب ، اعتقدت أنكِ قد تتفهمي ما أقصد، لأنكِ البارحة أخبرتِني أنكِ . . . أقصد متفهمة لمثل هذه الأمور .
- نعم .. نعم ،وماذا عن من تحبها هل تتفهم مثل هذه الأمور ؟
- إنها هي هذه الأمور ، هي رفيقتي وحبيبتي .
- وانا التي اعتقدت أنك ستحسبني مجنونة .
- وهل تحسبينني أنا كذلك ؟
- لا أعرف ، لكن ما حدث في القلعة يوشك أن يجعلني أصدق .
- لكني أفتقدها قليلاً ، فمنذ أن أتيتي وأنا لم أفتقد وجودها سوى هذه المرة بالقلعة ، ولا أعرف السبب.

سرت غبطة بوجدان سيسل عندما سمعت من أنس جملته الأخيرة ، ولكنها أخفتها كما أخفت دموعها من قبل ، وعرفت أن هناك قصة ستبدأ ولا يعلم نهايتها إلا الله .

هناك عند ساقية قديمة قد غاص جزء كبير منها بالأرض ، ولم يظهر منها إلا جزء ضئيل ، تهالكت بفعل السنين سُجنَت بجدران من نباتات وأغصان أمسكت بما استطاعت الوصول إليه ، وقف أمامها أنس وسيسل وشعرا أنهما أمام أحداث سنوات وسنوات قد تركت أثرها بهذا المكان ، وشعر أنس بوجود رفيقته وطيفه الغائب فأخذ يتلفت ، وهمت سيسل تسأله ولكن قاطعتها نفس النسمة الباردة التي مرت بهما في القلعة ، واجابها أنس عن سؤالها الذى لم تسأله :

- أعتقد أنكِ قد شعرتِ بذلك .
- نعم وهو أقوى هذه المرة مما كان بالقلعة .
- إنها هنا .

ثم أخذ أنس بيد سيسل وبإماءة منه ناحية أبراج الحمام المنتظرة مجيئهما والتي تبعد مسافة ليست بكبيرة عن الساقية ، و استجابت سيسل وسارت مع أنس باتجاه الأبراج ، وشعرت أن ما يجذبها ليس أنس بل طائرا الحمام اللذان كانا بحُلمها حتى أنها أغمضت عينيها ، حتى أدركا الباب الرئيسي للأبراج فتوقفا وفتحت سيسل عينيها اللتان ازدادتا اتساعاً بمجرد أن وقعا على صفحة الباب ، ووقفت سيسل واجمة شاخصة بصرها للباب العتيق، التفت أنس لسيسل ليجدها بهذا الحال ، فنظر لباب الأبراج وأدرك أنه نفس الباب الذي رأته سيسل في الحُلم ، فطمأنها وتقدم بها ليدخلا من الباب .

وبخطى متوجسة خطا أنس أولاً للداخل ،ففزعت سحابة من طيور الحمام التي كانت رابضة على الأرض ، وتناثرت لترتفع لأعلى بأصوات الهديل والرفيف التي ملأت المكان ، والمكان عبارة عن حُجرة بدون سقف جدرانها هي الأبراج المحتضِنة هذا المكان بما يحويه من أسرار.

مد أنس يده لسيسل ليساعدها على الدخول ، فدخلت وهي تدور بنظرها لأعلى وقد أبهرها منظر الأبراج التي تحيط بها من كل جانب بينما طيور الحمام تطير متنقلة من برج لأخر وهديلها يموج بالمكان ، فأخذت تنظر حولها ثم أطرقت رأسها وهمست :

- هذا المكان يعطي إحساس رائع حقاً ... يوجد هُنا سرداب .
- ماذا ؟ هل قلتِ شيئاً ؟
- (بصوت اعلى) هنا يوجد سرداب .
- كيف علمتِ ؟

لم تجب سيسل سؤال أنس بل اخذت تخبط بقدمها على الأرض ثم جثت وأخذت تبحث بين الركام والقش الذي كان يكسو أرض الحجرة حتى عثرت أناملها على تجويف صغير في أرضية خشبية كانت تتوسط الحجرة وتختلف عن طبيعة باقي أرضية المكان.

كان هذا التجويف هو الوسيلة لفتح باب خشبيّ والذي يؤدي لسرداب موجود أسفل الحجرة الموجود بها أنس وسيسل ، تماماً كما رأت سيسل بحُلمها ، وفي هذه اللحظة عرفت سيسل أن أحلامها هذه ليست من النوع الذي قرأت عنه بكتب علم النفس ، فهي ليست تعبير عن هواجسها وما يدور بعقلها الباطن لكنها رسائل تصل لها عبر الأحلام .

وبشكل تلقائي همت سيسل بنزول السلم المؤدي للسرداب فأمسك أنس بذراعها وهو في حالة اندهاش مما رأى وقال لها :

ـ سأنزل أنا أولاً ، فالله وحده يعلم ماذا يوجد بالأسفل.

ـ تفضل وأنا ورائك مباشرة.

أمسكت سيسل بذراع أنس وهو يتقدمها في طريقهما لأسفل .

ظلام دامس تقطعه أشعة الشمس المسترسلة من بين الأبراج لتدخل هذا السرداب بعد سنين طويلة لا يعلم عددها إلا الله ، ووسط خيوط العنكبوت الكثيفة تحسس أنس طريقه للداخل مقطعاً ما قابله من هذه الخيوط المحملة بغبار السنين.

كان يوجد بجوار الجدار صناديق علاها التراب وتهالك خشبها ، وعندما فتحها أنس وسيسل وجداها فارغة إلا من بعض لفافات من القماش ، لم يجدا بها شيء ، وفي يأس أسندت سيسل ظهرها للحائط قائلة :

لاشيء . . كان يجب ألا أسير وراء أوهام .

ـ ليست أوهام سيسل ، أنتِ لستِ وهماً ، ولا أنا .

ـ ماذا تعني ؟

ـ حضرنا هنا لسبب ما مازلنا نجهله ، لكني أوقن أنني لست واهماً وأن لكِ صلة بالروح زائرتي ، فأنتما متشابهتان ليس في الشكل لكن في الروح.، هل تفهميني؟

ـ أحاول.

ـ ساشرح لكِ اكثر ولكنى أخاف أن يتغلب اعتقادك بجنوني على تصديق ما أود إخبارك به.

ـ لا . . لا .. تأكد تماماً أنى سأتفهم ، فقط أريدك أن تتكلم.

وتراجعت وأسندت ظهرها على الجدار القديم بعد أن انهكها انتظار ماتود سماعه منذ الصباح وها قد أوشك على الاقتراب ، أما أنس فنسى الكلمات التي حاول لملمتها من زوايا فكره بعدما أخذت شفاه سيسل بلبه ، وشعر أنه وصل لمنتهى الدنيا وغاية أحلامه ولم يبق إلا أن يتذوق من رضاب السعادة ، فأقبل واقترب من سيسل التي شعرت بما يدور بوجدان أنس فأغمضت عينيها لتستقبل تصريح واضح بمشاعره تجاهها ، اهتزت الدنيا من حولهما في هذه اللحظة ، صرخت سيسل بعد أن تبينت أن هذا ليس انفعالاتها الداخلية فقط بل إن المكان ينهار بالفعل ، وبحركة تلقائية جذبها أنس وأبعدها عن الجدار المنهار .

وقف الاثنان ينظران لهذا النقب الذي انهار عنه الجدار وكشف عن تجويف بشكل حجرة صغيرة ، تقدم أنس وأزال البقايا عن الفجوة حتى كشف ما بداخلها ، وفي هذه اللحظة لم تصدق سيسل عيونها واقتربت بجوار أنس وهي تهمس بصوت مسموع :

غير معقول ،إنه الصندوق يا أنس ، الصندوق الذي أعطتني إياه السيدة بالحلم .

مد أنس يده وأخذ الصندوق قائلاً بنفس الهمس المسموع :

ألم أقل لكِ أنه ليس وهماً.

-١٨-

صندوق الذكريات

أخذ الصندوق موضعه على مكتب أنس والمصباح رفيق المكتب الأوحد قد تركز ضوءه على هذا الصندوق العتيق ، بينما أخذت سيسل تقوم بعدة محاولات لفتح الصندوق بأقل ضرر ممكن ، بينما أخذ أنس يراقبها بشغف لم يخرجه عن هدوئه المعهود.

ـ فُتح أخيراً ، أنس .. أنظر إن به كتاب .

ـ (اخذ الكتاب من الصندوق وفر اوراقه بحرص شديد) لا انها مذكرات وكلها باللغة العربية.

نظر أنس بداخل الصندوق ثم جذب زجاجة عطر صغيرة كانت تقبع بقاع الصندوق وقربها من أنفه وقال بهمس مسموع :

ـ غير معقول . . إن هذا العطر مألوف جداً لدي ، أشعر أنه عِطرها.

ـ عِطر مَن ؟

نظر لها أنس بحيرة ملأت صوته :

ـ عِطرها .. ألم أقل لكِ أنه ليس وهماً ، أشعر بهذا العبق دائماً ويزداد إحساسي به في وجودك...

ـ غير معقول.

كانت تنظر بعمق فى عيون أنس في هذه اللحظة لكنها تداركت وعادت للحديث الأساسي وهي تمسك بزجاجة العطر:

ـ صاحبة هذا الصندوق هي من تزورك دائماً وهي من جاءتني بحُلمي .

ـ مؤكد.

ـ وما علاقتك بالمِصريّ ؟ قد يكون جدك أو والد جدك مثلاً ؟!

ـ لا فجدودي ليسوا من هذا البلد ، أنا جئت من مدينة أخرى لأعيش هنا في عزلتي التي أردتها ولأكون بعيد عمن أعرفهم ويعرفونني ، هربت لأكون وحدي ، لكن واضح أن المِصريّ المجهول كان من أهل رشيد ، فهذا واضح من ملابسه وعمامته باللوحة .

ـ قد نجد إجابة في هذه المذكرات أو الرسائل ، فقد أحضرتها معي .

ـ سأعد الفطور والشاي اولاً قبل البدء في العمل .

ـ (بابتسامة لطيفة) سأعدهما معك.

بعد أن تناولا ما تيسر من الطعام للإفطار وبينما يرتشفان الشاي بالشرفة نظر أنس لسيسل وهي تستمتع بشرب الشاي في فنجانها العتيق وقال لها بابتسامة مختفية وراء هدوء ملامحه:

أتعرفين أنها تحب شرب الشاي مثلك في فنجانها الخاص ؟

ـ مَن ؟ سيلفيا ؟

ـ لا أقصد زائرتي المتغيبة حالياً ، ما لي بسيلفيا ؟ فأنا لا أعرف عنها شيئاً.

ـ غريب ! فمعروف عنها أنها ترتشف الشاي دائما في فنجانها الخاص ، حتى أن بعضهم يتهمونني أني أقلدها لكني لم أدرك هذه المعلومة إلا مؤخراً ، وأنا لدي هذه العادة منذ الصبا .

ـ (وقد أُثير اهتمامه) احكِ لى اكثر عن سيلفيا

ـ هى ابنة لطبيب نال شهرة في أواخر القرن الثامن عشر لكنه بعد وفاة زوجته اختفي من فرنسا ، اعتقد البعض أنه أصيب بالاكتئاب والديون وانتحر وأخرون قالوا أنه أخذ ابنته وعاشا في مجاهل إفريقيا ،

ولكن رسومات ابنته سيلفيا أكدت أنهما ارتحلا كثيراً في بلاد الشام ومِصر وبلاد أخرى ،ولا يُعرَف سبب ارتحالهما وما الغاية منه ، ثم عادا إلى فرنسا واستقرا بها ، غير أن الغموض الذي أحاط بشخصية سيلفيا ووالدها جعل خيال الكثيرين من الكُتاب والمؤرخين ينسج القصص والروايات حول أي تصرف بسيط منهما ، مثل فنجانها الخاص فقد سمعت عنه حكايات تصلُح للحكايات الخيالية عن الجنيات ، كما أنها ليس لها أي صور شخصية على الإطلاق فلا أحد يعرف ما شكلها كما أنها لم تفعل مثل بعض الرسامين ولم ترسم صورة شخصية لنفسها ، ولكن رسوماتها كانت تتسم بالبهجة والألوان الفاتحة لفترة من حياتها ثم اتجهت للقتامة و الحزن الذي ظهر في أغلب لوحاتها بعد ذلك ، ولم يُعرف سبب هذا التحول من النقيض للنقيض وهذا ما أبحث عنه وما أتى بي إلى هنا.

ـ وما سر اهتمامك أنتِ بها ؟

ـ اشعر أننا متشابهتان جداً رغم أني لا أعرف عنها الكثير لكني أشعر أني جزء منها أو العكس لا أعرف ، فكلما عرفت شيء عنها تأكدت أن بيننا رابط ما ، دعنا نعود للعمل فأنا لا أطيق صبراً لمعرفة ما حدث .

ـ تفضلي ، فأنا لست أقل منكِ شوقاً.

بعناية شديدة لرقة الأوراق التي كتبت بها المذكرات التي كلَت من سنوات عديدة مرت عليها وهي حبيسة السرداب المظلم ، بدأ أنس وسيسل العمل فتولت سيسل الرسائل التي وجدتها في القلعة فأعادت قراءتها مرة أخرى والتي كانت بالطبع كلها باللغة الفرنسية ، أما أنس فتولى أمر المذكرات والتي خُطت باللغة العربية ، وأخذ كلاً منهما يسرد للأخر ما كشفه من أمور ومواقف وحكايات ظلت أسيرة لقرنين من الزمان .

أخذت سيسل تقلب الخطابات بين يديها ، وتطلع أنس على ما تتوصل إليه دون أن ترفع نظرها عن ما بيدها من الرسائل :

ـ الخطابات كانت من سيلفيا خَطتها للشخص المِصري دون ذِكر اسمه و تاريخ الخطابات بعد عام ١٨٠١ ، أي أنها رحلت عن مِصر قبل أن ترحل الحملة الفرنسية ، أكيد حدث شيء ما أجبرهما على الفراق.

ـ وهذه المذكرات أعتقد أنها للمِصريّ نفسه الذي راسلته سيلفيا ،هاهو اسمه)عُمَر» .

صمت قليلاً ، فقد تذكر أن اسم)عُمَر» هذا ما سمعه الليلة الفائتة وهو بشاطىء الاسكندرية ثم استطرد قائلاً:

ـ هو نفسه من كتب هذه المذكرات يقصّ فيها كل شيء تقريباً ، انصتِ لهذا (لم تشرق الشمس يوماً قبل أن تهل علي سيلفيا ،وغربت يوم رحيلها ، ولم تشرق مرة أخرى)

ـ يا إلهي ، كيف تركته وهو يحبها كل هذا الحب ؟

ـ اعتقد انها لم تتركه برغبتها , (اخرج صورة من بين صفحات المذكرات) انظرى.. مِن المؤكد أن هذه صورة فوتوغرافية لها .

ـ انظُر ماذا كُتب على ظهرها (لم استطع الاحتفاظ بها وهي الوحيدة لدي لأنها تخصك)

استرسلت سيسل فى ملاحظاتها :

ـ تخلت عن الصورة الوحيدة لها لحبيبها , ماذا بك ؟ لم هذا الوجوم ؟

ـ أرجوكِ سيسل أن تأخذِ هذه الصورة وتدخلي مرسمى من هذا الباب

(مد يده بالصورة وهى ترتجف) بالواجهة لوحة على حامل مغطاة بقماش ابيض .

ـ لِمَ ترتجف ؟ ماذا بك ؟

ـ لاشيء لكن أرجوكِ أن تفعلي ما أطلبه منكِ ، انزعي القماش وقارني بين السيدة التي باللوحة وبين صورة سيلفيا ، سأنتظرك هنا .

ـ سأفعل .

كان أنس يشد على الصورة عندما أمسكت بها سيسل لتفعل ما طلبه منها، فنظرت له متسائلة ، ثم برقة شديدة رفعت أنامله عن الصورة ، فتدارك نفسه وترك الصورة التي جذبتها سيسل برفق من بين أصابعه ، ثم اتجهت مسرعة للمرسم ودارت برأسها لترى لوحات أنس التي تعكس جانب كبير من شخصيته لم تره من قبل ، ثم نظرت أمامها ووجدت اللوحة رابضة على حامل خشبيّ بغطاء من القماش الأبيض مسدل عليها كأنه الكفن ، تقدمت سيسل نحو اللوحة وأزاحت الغطاء وفعلت كما طلب منها أنس .

أخذت عيني سيسل تتنقل من اللوحة إلى الصورة والعكس بعد أن رفعت الصورة بمحازاة اللوحة ، ومن الوهلة الأولى أدركت أنهما لنفس الشخص، وأنها ما أطالت النظر بهما إلا لتزداد تأكداً ولتأخذ وقتها في استيعاب الصدمة .

ثم استدارت عائدة لغرفة المكتب عندما سمعت أنس ينادي باسمها بصوت مستجدي ،فذهبت إليه ، وبحركة شبه آلية وضعت الصورة مرة أخرى بيده وهي تقول :

ـ الاثنتان سيلفيا (التفتت اليه متسائلة) . . كيف؟

رفع نظره لها وقد ساءت حالته :

ـ لا أعرف .

جلست سيسل بجانبه , ربتت على كتفه وهى تقول:

ـ كنت تتوقع ان صاحبة الصندوق هى زائرتك وقد أسكنتها لوحتك ، فلِمَ الذهول ؟

ـ هذا أكد لي أن طيفى الجميل ليس أنتِ وأن كل ما في الأمر أنه شبح لامرأة ماتت منذ قرون

ـ أهذا معناه أننا نقترب أم أننا ابتعدنا ؟

ـ وهل نحن معاً في هذا؟

ـ نعم ، كل ما حدث يثبت أننا معاً في هذا ، سيلفيا ترسم الشخص الذي يزورني دائما بأحلامي أنت ترسمها دون أن تعرفها ومن المؤكد أنها هي زائرتك الغامضة ، وأنا ... وما أنّ بوجداني نحوك مذ رأيتك .

ابتعدت قليلاً وأخذت نفسها في فكرة وهي تنظر في اتجاه بعيد عن أنس وكانها تحاول أن تنظر للأمر من زاوية أكثر بعداً ، ثم رجعت نحو أنس وقالت له في شيء من الحدة:

ـ وجودى معك يبعد طيف حبيبتك المجهول ..

(بصوت اقل حدة) وهذا يخيفك

ـ أخاف ؟! مما أخاف ؟

ـ أن تُحرم منها ، أن تتركك .

ـ ليس صحيحاً (يهرب بنظره من عيني سيسل)

ـ لِمَ وجومك هذا الصباح وقد لمحت أنها بدأت تتغيب عنك ؟ لِمَ تغرب عيناك كلما وقعتا على عيني وتذهب بهما لمجهول بعيد ؟

ـ خِفتُ أن تظني بي الجنون .

ـ لِمَ حزنت عندما علمت أن طيفك الزائر هو لشخص ميت ؟

ـ لا اعرف .. (نظر لها بحزن ورجاء ضائع) كنت اظنها انتِ، أن بعضاً من روحك زارني قبل مجيئك.

ـ ثم ؟

أطرق أنس في صمت فردت سيسل عنه :

ثم اكتشفت أن هذه الروح ليست أنا ، وما في ذلك ؟

ـ قلت لكِ منذ ساعات أني أشعر دائماً بأن جزءاً منها في داخلي

ـ ولكني لست هي .. هل تفهم ؟ لست هي .

نظر أنس لعيني سيسل والوجل يكسو ملامحه ، باحثاً بعينين ذبلتا من

الحيرة عن طيفه الضائع ، غير مصدق أن سيسل ليست رفيقة عُزلته وأن الوهم هو ما ملأ حياته طوال هذه السنوات ، ورغم ما يعتمل في صدره وتفكيره إلا أنه ظل صامتاً وعاد فأطرق برأسه مرة أخرى ، فاستطردت سيسل قائلة :

ـ هي لم تحبك أنس ... لكني فعلت

رفع أنس نظره لسيسل وقد ازاده ما سمع حيرة ، ثم أطرق مرة أخرى في يأس مضني جعله يهمس :

ـ إنه الوهم.

ـ وهم ؟ ألم تدرك أن سيلفيا وعمر حقيقة ، ألم تدرك أن قوة عاطفتهما هي القوى الخفية التي دفعتنا دفعاً لاكتشاف ما توصلنا إليه حتى الآن .

ـ ماذا اكتشفنا ؟! بعض الرسائل والأوراق؟! وما الذي حققناه من هذا الاكتشاف ؟!

ـ هدأت الروح المعذَبة

انتبه أنس لحديث سيسل ونظر لها بتساؤل صامت فقالت:

ـ أدركَت روح سيلفيا المعذبة كم كان عُمَر مخلصاً لها ولحبهما ، كما ساعدت روح عُمَر لتصل لرسائل حبيبته التي لم تصله في حياته .

ـ تلاعبا بنا حتى ترتاح روحيهما المعذبة.

ـ لم يتلاعبا بك يا أنس ، بل أنت من ألقيت بنفسك بين أحضان وهم نسجته بنفسك ، ولم تحاول أن تدرك ماهية هذا الطيف ، ودون أن تعرف غايتها ، أنست بها في انعزالك الإختياري واستكفيت بها عن كل البشر، وها أنت الآن يملأك الغضب لأنك تشعر أنها خانتك وتلاعبت بك ، واختنق صوتها بالبكاء :غضب جعلك لا تشعر بمن حولك.

شعر أنس وكأنه عارٍ تماماً في ميدان مليء بالغرباء ، مما أثار بداخله الغضب

الشرقيّ الأهوج و كاد أن يخرجه عن هدوئه فأغمض عينيه فى ألم وأشاح بوجهه عن سيسل ، ثم تمتم بصوت مخنوق بغصة في حلقه :

ـ كما قلتِ أنتِ .. انعزالي إختياري .. أنا لا أريدها ولترحل روحها في سلام، لا أريد أحد ، يكفيني ما عانيت وكفى.

دخل تيمور وهو ينادي على أنس حتى وصل لحجرة المكتب حيث سيسل وأنس وقد توقفا عن الحديث ، نظر إليهما تيمور ثم توجه بالسؤال لأنس: لماذا هاتفك مقفل يا أنس ؟ حاولت الاتصال بك مراراً دون فائدة ، ثم نظر لسيسل قائلاً :

ـ سيسل كيف حالك ؟

ردت و مازال صوتها مختنقاً بالبكاء:

ـ بخير .

كطرفي المغناطيس تباعد كلاً من سيسل وأنس الذي لم يُجِب تيمور بحرف،واتجه ببصره للنافذة كأنه يناجي البحر لإنقاذه ، وعندما شعر تيمور أن صديقه مازال غاضباً منه اتجه لسيسل ووَجه إليها الحديث :

ـ هل توصلتما لشيء ؟

فأشارت سيسل للمكتب وهي منهكة ثم ألقت بنفسها على مقعد قريباً لها، أما تيمور فاتجه للمكتب وشاهد الصندوق العتيق وقد جاورته خطابات سيلفيا ومذكرات عُمَر ، فهَمَ بالتقاطهما فأسرعت سيسل تمنعه قائلة :

ـ احذر .. إن عمر هذه الأشياء مائتي عام .

ـ إن هذا فعلاً لاكتشافٍ رائع

ـ هل لك أن تقلني للاسكندرية ؟

ـ بالتأكيد, (اتجه لانس الذى لم يحرك ساكناً واستمر بالنظر خارج النافذة) اسف .. (يصمت قليلاً) ارجوك ان تسامحنى فأنا لم أقصد الإساءة إليك مطلقاً ، فقط عقلي لم يستطع الاستيعاب ، قد يكون بسبب أني لم

أخض مثل هذه التجربة من قبل ، قد تكون قدرتي على التخيل لم تستطع الإدراك ، أقصد أني انا السبب ولست انت ، أرجوك سامحني .

يأس تيمورمن أن يجيبه أنس فانسلّ منسحباً للخارج وهو مطأطأ الرأس،أما سيسل فسحبت حقيبتها التي كانت معلقة على ظهر مقعد المكتب وبينما تهم بالانصراف قالت لأنس :

ـ ساترك كل شيء هنا وساعود غداً ، أرجوك اقرأ ما كُتِب بالماضي و تأمل لوحتك جيداً ، فأنا متأكدة أنك رسمتها بروحك لكنك لم تشاهدها بعينك وقلبك ، قد تستطيع حينئذ أن تكملها ، وستدرك حينها لِمَ رسمتها.

وما أن انصرفا تيمور وسيسل حتى اتجه أنس بخطى سريعة وساقاه تتعثران للوحته المتصدرة المرسم وكأنها لهفة اللقاء مع الحبيب القادم من المجهول ، فأخذ يتأملها ثم اقترب منها أكثر وأمسك بالإطار بيداه، وزاد اقترابه حتى كاد يلتصق بها ثم أغمض عيناه وشعر ببرودة تسري بجسده وهواء بارد يمر على وجنتيه وقد سمع حفيفه الهزيل في أذنيه فجعله يتنهد تنهيدة كادت تذيب الألوان من لوحته الأثيرة .

أطلق أنس سراح لوحته وتناول القماش ليغطيها ثم اتجه مباشرة لمكتبه وبإنهاك شديد ألقى بنفسه على كرسيّ المكتب ، وبعيون أعياها الإجهاد والحيرة أخذ في قراءة المذكرات والخطابات .

-١٩-

ليلة بلا قمر

في ليلة اختفى فيها القمر فوجئ عمر و الشيخ والد غالية بطرقٍ عنيف على باب الدار ، وعلى ضوء قنديل أشعله عمر واتجه به إلى الباب ليفتحه شاهد وجه الطبيب الفرنسي والد سيلفيا المتعَب والذي كاد الخوف والهلع يفصل شقفات وجهه عن بعضها ، طلب من عُمَر والشيخ العطار أن يأتيا معه لبيته على وجه السرعة وأن يحضرا معهما الحقيبة ، وبدون تفكير أحضر الشيخ عباءته وعمامته وأخذ عُمَر شاله على كتفه وكذلك حقيبة عمه الطبية واصطحبا الطبيب .

وفي الطريق سرد الطبيب لعُمَر والشيخ السبب الحقيقيّ لترحاله وتنقله وراء الجنود الفرنسيين والمحاربين .وهو أن ابن أخيه أحد هؤلاء الجنود، وقد رباه بعد موت أخيه وزوجته بالكوليرا بينما نجا ابنهما الوحيد من هذا المرض القاتل ، فنذر الطبيب نفسه أن يحمي هذا الابن الوحيد وهو يدعى رينييه ،وأيضاً ليؤدي رسالته كطبيب للإنسانية في نفس الوقت ، وعندما جاء الجنود ليسكنوا قلعة جوليان كان رينييه معهم ، فجاء ورائه،وسكن برشيد ليظل بجواره ، وقد أبقى الطبيب هذا الأمر سراً كي يستطيع التحرك بحرية كطبيب حُر دون التقيد بتحكمات قائدي رينييه ولو اضطره الأمر إلى التخفي في بعض الأحيان ، وقبل أن يُكمِل الطبيب ما بدأ في سرده كانوا قد وصلوا لبيت الطبيب ، وعندما دلفوا للداخل بغرفة في أقصى مكان بالبيت شاهد عُمَر سيلفيا جاثية على ركبتيها بجوار فراش ملقى عليه شاب أشقر بملابس الجندية الفرنسية ممزقة وملطخة بالدماء التي كانت تنفر

من كتف الفرنسي وذراعه ، وسيلفيا منهمكة في محاولات مضنية لإيقاف النزيف بيديها دون فائدة حتى أن اثراً من هذه الدماء كان قد سالَ على أرض الغرفة.

هرول الطبيب للجندي الجريح يتفحص جرحه ومن بعده الشيخ الذي أخذ حقيبته من عُمَر ، وبدأ يخرج ما بها ليعد منه علاج عاجل ، بينما ابتعدت سيلفيا لتفسح لهما المجال ،ووقفت بجانب عمر الذي لم يرفع عينيه المقتطبتين عن الجندي ، ودون أن ينظر لسيلفيا سألها:

ـ ما الأمر؟

ـ إنه ابن عمي.

ـ عرفت بذلك من والدكِ .

ـ عندما جاء القائد بوشارد أمر بالرحيل لسوريا لملاقاة الجيش التركيّ هناك، فقرر رينيه أن يهرب لأنه سئم الحرب وأهوالها ولأنه يرى أن هذه الحرب هي حرب غير شريفة وهي مجرد تحقيق لغرض شخص مجنون ، ولكن كُشف أمره وهو يفِر فأطلقوا عليه النار ورغم أنهم لم يتمكنوا من اللحاق به إلا أنه أصيب كما ترى.

ـ لِمَ أخفيتي عني الأمر؟

ـ كان لابد من ذلك لحمايتك وحمايته فلو عرف القائد الفرنسي بصلتنا به لاستغلنا لمعرفة أخباركم والتجسس عليكم ، لأننا نعيش بينكم وسيكون رينييه هو رهينته .

ـ كيف إذاً تعرفون أخباره ؟

ـ عن طريق طبيب القلعة فهو الشخص الوحيد الذي يعلم بهذا الأمر وبحكم مهنته ومهنة أبي فإنهما يتقابلان باستمرار ونحن نتبادل الرسائل عن طريقه وهو حافظ للسر .

ـ هل يعرف مكان بيتكم هذا؟

ـ نعم.

إـ ذاً أنتم لستم آمنين هنا .

ـ قلت لك أنه حافظ للسر وهو أبداً لن يخون .

ـ انصتي إلي سيلفيا ، ابن عمكِ في نظر القيادة الفرنسية الأن خائن لأنه تخلى عن واجبه الوطنيّ ، كما أنه يعرف أسرار كتيبته ، يعرف مداخل ومخارج القلعة ، يعرف خطة التحرك ، أى معلومة صغيرة يعرفها هي خطر مؤكد على كتيبته ،والطبيب الفرنسي لن يتوانى عن خدمة وطنه للحظة ، هل فهمتي ؟

ـ نعم نعم فهمت ، ما العمل إذاً .

ـ انتظريني هُنا وسأعود.

ـ إلى أين ذاهب؟

ـ لن اتأخر ، اعتني بنفسك وبهم جيداً حتى اعود.

اتجه عمُرَ لبيت منصور ابن عمه جابر، وهو صاحب أحد السفن التجارية التي تحضر التجارة مِن وإلى الصعيد عبر النيل ، وأخبر عمر منصور أنه سيحتاج مفتاح سرداب الحمام ، ووسط عبوس نوم أثقل أجفان منصور سأله وهو يضع المفاتيح بيده :

ـ هل ستنقل شيء الليلة ؟ فأنا لم يردني أي معلومة عن عملية نقل .

ـ لا ليست عملية نقل ، إني أحتاجها لإخفاء جندي فرنسي فَارٍّ.

ـ فصاح منصور بفزع : هل جننت ؟ فقدت عقلك بحق الله .

ـ لا يوجد وقت لأشرح لك إنما جئت لأخبرك ولتعينني لنقله إلى هناك.

ـ قد تكون مؤامرة من الفرنسيين ليعرفوا أين نخفي أسلحتنا ، ألم تُفكِر في حجم المخاطرة التي تُعرضنا كلنا لها ؟ لِمَ لم تقتله؟

ـ نحن لسنا سفاحين يا منصور كما إني أعرف جيداً يا منصور حجم

المخاطرة ولا أحتاج من يذكرني بذلك ، وأتحمل المسئولية كاملة.

ـ الأمر يتعلق بتلك الفرنسية أليس كذلك؟ لقد جننت ، من المؤكد جننت، إنهم أعداؤنا يارجل .

قبل أن ينصرف عمر حدّق بعيني منصور الغاضبتين وعندما لم يجد فيهما شيء من الفهم قال له :

ـ كنت أعتقد أنه سيأتي يوم وتفهم أما الأن فقد تأكدت أنك لن تفهم ابداً.

انصرف عمر دون أن يجيب نداء منصور .

تفقد عمر الطريق وهو عائد لبيت سيلفيا ليعرف إلى أين وصل الفرنسيون في بحثهم عن الجندي الهارب وتأكد أنهم لم يعرفوا طريقهم لبيت الطبيب بعد ، لعل طبيب القلعة لم يعرف بالأمرحتى الأن ، وكان قد سحب عربة كارو من حظيرة بيته يجرها فرسه الأشهب ، ثم وضع بها بعض الأغطية قبل العودة لبيت سيلفيا .

وفي جنح الليل تلمس عمر طريقه بين الحقول متجنباً الطرق والدروب محاولاً خفض صوت صرير عجلات العربة التي تحمل سيلفيا و والدها والجريح ، وقد صحبهم الشيخ العطار، حتى وصلوا لأبراج الحمام، وفتح عُمَر الباب بينما كانت سيلفيا تضيء مصباحين أعطت أحدهما لوالدها .

حمل عمر رينييه فوق كتفه ودخل به ،وقد تقدمه الطبيب ليضيء له الطريق وجذب الشيخ العطار الأغطية فتبعته سيلفيا بدورها تضيء الطريق للداخل بمصباحها ، فلما دلفوا كلهم للداخل ألقى الشيخ بالأغطية على الأرض وأسرع بإقفال الباب ثم هرول وانحنى على الأرض وجذب باب بفتحة موجودة بالساحة المحاطة بالأبراج ثم أشار للطبيب ليتقدمهم للنزول عبر الدرج المؤدي للسرداب ، فرفع الطبيب يده بالمصباح وتلمس خطواته على الدرج وضوء مصباحه يبدد خيوط الظلام الأسود ، ودلفوا

جميعاً واحداً تلو الآخر .

وبعد أن وضع عُمَر الفرنسي الجريح ليرقد على مجموعة من الصناديق قد افترشتها سيلفيا بغطاء مما أحضرهم الشيخ ، استدار للشيخ العطار قائلاً :

ـ يجب أن تعود للدار ، سأبقى أنا معهم.

ـ لكن يا ولدي . . .

ـ أرجوك يا عم ، و أكمل مشيرا للجندي الفرنسي :

قد يأتي جنود للبحث عنه (مشيراً للفرنسى) ويفتشون البيوت وهم يعلمون علاقتك بالطبيب (يصمت قليلاً) النساء وحدهن بالبيت ، أرجوك ..أرجوك.

عاد الشيخ وأقفل باب السرداب وهو ينظر لعُمَر الذي لا يعرف هل سيراه مرة أخرى أم لا ، ثم أهال القش والتراب على الباب السري ليخفيه .

وبينما كان الطبيب مشغولاً بالعناية بابن أخيه كانت سيلفيا تجول ببصرها بالمكان ،ورأت صناديق وأجولة تراصت على الجانبين بجوار الجدار فرفعت بصرها ناحية عُمَر و الذي كان يفكر فيما سيفعل بعد ذلك ، وسألته :

ماهذا المكان ؟ وماذا تحوي هذه الصناديق.

ـ إنها المؤن سيلفيا ، الجيش الفرنسي يأخذ كل ما تجود به أراضينا وما تحمله سفننا إلينا من تجارة بأبخس الأسعار ، فلابد أن نؤمن لعائلاتنا ما يكفيهم لوقت الحاجة .

ـ وهذه الصناديق ؟ إني أعرفها جيداً، رأيت الكثير منها خلال ترحالي على ظهور السفن ، وأعرف جيداً ما تحويه ، كنت تنوي قتل فرنسيين ، هم جنود لكنهم فرنسيون .

ـ هم من أخذوا بلادي وعاثوا بها فساداً ، لاتلوميني إن كنت أدافع عن بلدي وكيف لي ألا أفعل بالله عليكِ؟

ـ وهل كنت أنا جزء من خطتك ؟ كنت تعتقد أني مدخلك إليهم فتُكمِل بي ما ينقُص خطتك ؟ وبالطبع كنت ستهجرني عندما تتأكد أنني

ليس لي أي علاقة بالجيش ولا أملك أي معلومات تصلح لك ؟ قل لي ماذا أعني لك .. ماذا أعنى لك؟

ـ أنتِ كل شيء . .أنتِ الدنيا والروح والفؤاد وهذا .. هذا وطني ، أرجوكِ يجب أن تفهمي .

توقف عمر عن الكلام حين سمع صوت بالأعلى فاشار للموجودين بالصمت ثم اتجه لأحد الصناديق وفتحها وأخرج منها سيف وجهه بأعلى الدرج متربصاً للقادم المجهول ، ولما فُتح الباب وضح في ضوء القنديل وجه حامله المجهول ، وإذا به وجه منصور الذي بمجرد أن اقترب بالقدر الكافي قال هامساً :

ـ الحمد لله انكم بخير.

تنفس عُمَر الصعداء وأرخى سلاحه قائلاً:

ـ ما الذي أتى بك ؟

ـ يجب أن ترحلوا الأن ، الجنود بكل مكان، وبين ساعة وأخرى سيصلون لهُنا .

اتجه عمر لرينييه بدون أن يأخذ مهلة للتفكير وحمله مرة أخرى على كتفه متوجهاً به للداخل ليصل لنفق ، بينما أشار منصور لسيلفيا ولوالدها اللذان وقفا حائران ليلحقا بعُمَر فدلفا للنفق وتبعهما منصور ، وقد ظهرت ملامح النفق المجعدة في ضوء مصباحان أحدهما بيد الطبيب والأخر بيد منصور. عبر النفق الضيق اجتازوا طريقهم للنيل ، حيث ينتظر قارب صغير مكث في انتظار أي وافد من النفق السريّ ، حملهم جميعا ثم سار بنهر ماجت أمواجه فقطعتها ضربات مجدافين بيدي عُمَر، بينما عينيه تحاولان تخلل الظلام ليستطع إعادة رسم ملامح سيلفيا واستحضارها بمخيلته والتي لم يظهر منها غير خطوط ضعيفة من أثر ضوء النجوم فقد أطفأوا المصباحين خوفاً من أن يكشفا مكان القارب في وسط الظلام .

وجه منصور الدفة وقد كان هو من يملك زمامها ناحية جزيرة بوسط النيل تبعد عن الشاطىء بمسافة كبيرة ، وما أن وصل قاربهم إلى بر الجزيرة حتى قفز منصور في الماء وسحب القارب للأرض حتى لا تجرفه المياه ونزل كل من بالمركب بما فيهم الجندي الجريح رينييه الذي حمله عُمَر ليضعه تحت شجرة عجوز كبيرة الحجم متفرعة الأغصان وقفت تشهد على أحداث هذه الرحلة الليلية ، وهمَ الطبيب بفحصِ الجرح بينما تضيء له سيلفيا بمصباح رفعته بذراعها ، فهرول عُمَر ناحيتها وأخفض يدها فمر ضوء المصباح بجانب وجهها الملائكيّ فسرق عُمَر صورة وجهها المضيء وطبعها بذاكرته، فهو كان يعرف أنه سيعيش ما تبقى من عمره وهو يجتر هذه اللحظة ، ثم أجفل وهو يخفي ضوء المصباح بجلبابه ، أما سيلفيا فقد حارت في أمره بعد أن رأت في عينيه شوق لحرمان آتٍ بل هو من يأت به الآن ، لم تستطع إدراك ما يدور بخلد عُمَر ولكنها استسلمت لمجريات القدر وتابعت مع والدها تطبيب رينيه بينما وقف منصور يراقب البر بعد أن أرسى القارب . وبعد أن اطمأن عمر وسيلفيا على رينييه من والدها الطبيب الذي قد فرغ من تطبيب الجرح ، احتضنتهما الشجرة وكأنها الجَدة الكبيرة و قد أعياهما ما عاناه من ليلة عصيبة ، ولكن كلا منهما كان مستمتعا بوجود الأخر بجانبه في هذه اللحظات الأخيرة ، ثم نظر عُمَر لسيلفيا قائلاً :

ـ بعد أن تشرق الشمس صباحاً ستمر من هنا سفينة بضائع عائدة من رشيد للصعيد ، يجب أن يستقلها رينييه ،وسيعتنون به حتى يُشفى جرحه، ويستطيع أن يشق طريقه عائداً لوطنه بعد ذلك ، ولكن لن تستطيعا أن ترافقاه .

ـ والدي لن يتركه.

ـ اذاً فهو يحكم عليه بالموت ، وهو وحده يستطيع التخفي ويستطيع أن يندس بين الرجال ولكنكما ستشكلان هكذا عبءً عليه ، سيُكشف

أمركم من أول لحظة ، ثم صمت قليلاً وهو مطرق للأرض وقال : يجب أن ترحلا غداً من الاسكندرية ، فميناء الاسكندرية كبير ومزدحم ولن يستطيعوا العثور عليكم بسهولة.

ـ أنت تفترض أن طبيب القلعة قد وشى بنا ، وهذا غير صحيح ، سنعود لبيتنا برشيد كما كنا من قبل .

ـ لا ، المخاطرة كبيرة ، لا يوجد هنا ما يجعلكِ تضحين من أجله كل هذه التضحية ، في بلدكِ ستكونين في أمان .

أخذت سيلفيا تنظر لعُمَر بدهشة وقد صُدمَت بحديثه ، فبعد أن قرأت بعينيه ما قرأت يبدو الآن وكأنه يريد التخلص منها ، ولِمَ لا ! فقد كُشف سره أمامها ، وقد يحاول قتلها كي لا تبوح بما رأته لأحد ، ولكنه هو الذي كشف سره أمامها باطمئنان كما أنه تكبد كل هذا العناء من أجل قريب لها غريب عنه بل ويعتبَر عدو له لأنه من الجنود الفرنسيين.

تشوشت أفكار سيلفيا والتعب جعلها أكثر تشويشاً ولكنها لم تنطق بكلمة واحدة ، أما عُمَر فرغم أن قلبه وروحه يتجهان لسيلفيا إلا أنه لم يرفع عينيه طوال الليل عن ... منصور.

-٢٠-

الحقيقة

قبل بزوغ الفجر بساعات قليلة هرول تيمور لباب شقته ليرى من الطارق الذي جاءه في هذا الموعد المقلق ، وبتوجس وقبل أن يفتح باب بيته سأل بصوت خفيض :

ـ من ؟

ـ أنس.

فتح تيمور بسرعة الباب وأدخل صديقه الذي انطلق يتحدث بدون مقدمات و بشكل هيستيري :

ـ لقد وصلت للحقيقة يا تيمور ويجب أن أخبر بها سيسل الآن ولكني أعرِف أن الوقت غير مناسب ، كيف هي؟ بخير؟ .. ها؟؟ أعلم أني أغضبتها ولكني سأصلح كل شيء .. ما اسم الفندق الذى تقيم فيه ؟ فقد ابلغونى فى الفندق الذى كانت تنزل فيه انها تركته , ارجوك اسرع لن أستطيع الانتظار أكثر .

ـ سيسل سافرت يا أنس.

ـ ماذا تقول ؟ متى ؟ ولماذا ؟

ـ اجلس يا صديقى , فانا ادرك انك تمر بمنحنى صعب في حياتك و ...

ـ أرجوك كفى ثرثرة ، أريد أن أعرف لم سافرت بهذه السرعة ؟

ـ تعتقد أنك مكتفي بحب زائرتك الغامضة ، شعرتْ أنها عائق بينك وبينها، يا إلهي ! ما هذا الذي اقوله ؟ ولكنها الحقيقة .. إنها مؤمنة تماماً بوجود طيفك الزائر وأن سعادتك في وجود هذا الطيف واعتبرت

سيلفيا أنها مصدر تهديد للطيف ، كما أنها اعتبرت رد فعلك أمس طرد لها من حياتك، وإثبات دامغ لما كان يدور بعقلها فقررت أن تختفي هي من حياتك ، إنها تحبك يا أنس .

ـ أنا أيضاً أحبها وأدرك تماماً هذه الحقيقة ، لكن فكرة أن أرواح من الماضي تتحكم في أحلامي واتجاهاتي لأفعل ما عجزت عن فعله في الماضي أصابتني بالجنون ، لكني الأن أفهم ما حدث ورأيت الأمر بمنظور آخر جديد ، صدقني .

ـ للا تشرح لى شيئاً ياصديقي لأني لن أفهم ، لكني أثق أنك تعرف ما يجب عليك فعله .

ـ نعم ، أنا أعرف ما يجب عليّ فعله .

بالصباح . . دخلت سيسل من باب الجامعة بفرنسا وقد تبدل حالها تماماً ،فلم تنتبه لأستاذها الذي أقبل عليها بساحة الجامعة وقد أدهشه رؤيتها :

ـ سيسل ؟ إنها مفاجأة رؤيتك اليوم هنا .

ـ (بابتسامة ذابلة) سعيدة ام ؟؟

ـ الحزن الذي كسى وجهكِ وضعني في حيرة فلا أستطيع أن أجيب على سؤالكِ ، ولكن واضح أن لعنة سيلفيا قد أصابتكِ، تعالِ يا ابنتي بمكتبي لتحكي لي ما حدث بالتفصيل - أين اللوحة ؟

ـ لَم أحضر شيء ، تركت كل شيء هناك بمِصر مع بعضٍ مِني.

ولما وصلا لردهة المكتب سمعت صوت اعتقدت أنها لن تسمعه مرة أخرى ينادي باسمها :

ـ سيسل.

رفعت رأسها ونظرت أمامها لتجد أنس واقفاً أمام باب مكتب البروفسير بيير وعينيه يملأهما الرجاء ، فاقتربت منه سيسل بعيون غرقت بدموع فرحة وبصوت متأرجح قالت له:

ـ أنس؟ ماذا جاء بك إلى هنا وكيف ... كيف...

ـ أردت أن أعطيكِ هذه .

مد يده بالرسائل والصندوق لسيسل ثم استطرد قائلاً :

ـ أما اللوحة فهي أمانة عندي لأني ما كنت سأستطع الخروج بها من المطار.

ـ أها ، أهذا ما جئت لأجله؟

ـ لقد وصلت للحقيقة سيسل ، لم أنم ليلتي ، فكرت بكافة التفاصيل وتجرأت لأول مرة على الغوص بأعماق نفسي ... (نظر ناحية البروفسير ثم وجه حديثه لسيسل) اريد ان اتكلم .. أن أقصّ عليكِ الكثير ، فهل أنا مُرحَب بي لديكِ ؟.

توجه لهما البروفسير وقال لسيسل:

ـ ضيفكِ لم ينم ليلته سيسل ، فلتذهبا للمقهى وتعزميه على فنجان شاي.

أخذت سيسل بنصيحة أستاذها واتجهت مع أنس للمقهى الباريسيّ ، وبعد أن اتخذا مكانهما به بدأ أنس حديثه قائلاً:

ـ طوال عمري أقاوم سيطرة أبي على حياتي ، حتى بعد أن تركته وعشت عزلتي في بيتي هذا إلا أني اختنق بمجرد التفكير بأني أُسير بوسيلة أو بأخرى، مما يشوش تفكيري في بعض الأحيان ، ما أريد قوله أني اكتشفت أن ما حدث هو أن روح سيلفيا كما قلتِ كانت معذبة ،فرسائلها لم تصل لحبيبها وأعتقد أن شخص ما بالقلعة هو من كان يتسلمها و كذلك اللوحة ، وأنه لم يقم بتسليمها لعُمر وفي الغالب أنه طبيب القلعة فهو الشخص الوحيد الذي كانت تعرفه سيلفيا وتأمن له .

وبدلاً من أن يسلم الرسائل لعُمَر اعتقد أنه من الأفضل أن يخبئها بمكانٍ سريّ وينتهي الأمر.

نعم ، نفس الفكرة إن بعضهم يعتقد أن نظريته هي الأفضل دائماً حتى لو كان الأمر يخص آخرون ، المهم أن روح سيلفيا والتي أعتقد أن جزء منها يمس روحكِ كانت تحثكِ وكذلك تحثني على الوصول للرسائل وتوصيلها لعمر فروحه أيضاً شعرت بنا ، لا أعلم لِمَ اختارانا ، ولكني أعلم أنهما لم يقصدا أن أغرم بكِ.

نظرت له سيسل محاوِلة أن تدرك مدى تصديق أنس لما يقول ، وفهم أنس نظراتها فقال لها :

ـ سيسل . . أنا أحبك .

ـ لا ، أنت تحبها هي ، ولا تريد أن يقف حائل بينك وبينها.

أنت تحبني لأنك رأيت أني تجسيد لسيلفيا

ـ لا بالله عليكِ ابداً ، أنا لا أحب سيلفيا ولا يهمني من أمرها شيء على الإطلاق ، فما أصابني بالجنون أن تكون مشاعري بيد روح مجهولة توجهني لمن أحب وتشويش أصاب أفكارى جعلني أبتعد عنكِ أنتِ أيضاً، لا أنكر أن روحها أنست وحدتي لفترة طويلة ولكني أدرك الآن أن هذا مجرد شغف بالمجهول وليست عاطفة اختلجت بفؤادي ، وما أنا سوى رسول سيلفيا لعُمَر

ـ كما كنت أنا رسول عُمَر لسيلفيا

ـ نعم ، لكني لم آت لكِ اليوم إلا لأقول لكِ أني أحببتك مذ رأيتك أول مرة بل قبل أن أراكِ ، فغرامي وشغفي بكِ أنتِ وليس بسيلفيا ولكن الأمور اختلطت عليّ وأنتِ تدركين ذلك ، انتِ بالنسبة لي أماني سيريالية ، أتيت اليوم لأنني أعرف أني إذا فقدتك ستظل روحي معذبة للأبد .

ابتسمت سيسل ابتسامة تملأها السعادة ثم أخذت بيد أنس ووقفت وهي تقول :

ـ تعالى معي .

- لأين؟

- سترى

وبميدان كبير يعج بطيور الحمام الرابض بأرض الميدان جرت سيسل وهي ممسكة بيد أنس ووقفت في وسط الميدان وطيور الحمام تحيط بأقدامهما ، ثم نظرت في عينيه وقالت:

- شعرت بحُبك وأنا أشاهد طيور الحمام بِمصر، وأريدك أن تشعر بحُبي وأنت تشاهد طيور الحمام بفرنسا .

فحملها وهو يدور بها في دوامة امتزجت بأجنحة الطيور وبضحكاتهما المدوية.

تمت

سحر حجاب
٣١ - ١٢ - ٢٠١٠